

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
المشاهرة

أدب القرآن

بمقلم
الأستاذ فؤاد شاكر

المجلد التسعون

اهداءات ٢٠٠٢

ال محمد مصطفى يوسف
القاهرة

مكتبة عربية
(هدايا)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

رقم التسجيل

دراسات في الإسلام
يُصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
المتأمرة

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية
أدب القرن

بمّله
الأستاذ فؤاد شاكر

((٩٠))
السنة الثامنة
١٥ من رمضان ١٣٨٨ هـ
٥ من ديسمبر ١٩٦٨ م

يُشرف على إصدارها
مُحمّد توفيق عويضة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »

صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ

تمهيد

أسباب تأليف هذا الكتاب - اتساع مذاهب البحث -
أدب العلم وأدب النفس - الأحكام التشريعية في القرآن -
اغفال المسلمين لمصدر سعادتهم - القرآن مصدر سعادة البشر
- تعريف السعادة والطريق الموصل اليها - آداب المسلمين
في حياتهم اليومية من القرآن - معاملاتهم الحقوقية .

ظن بعض أصدقائي ، الذين سمعوا بعنوان هذا الكتاب ،
قبل قراءة موضوعه - أدب القرآن - اننى عنيت ببحث أدب
العلم ، لا أدب النفس ، اذ من المفهوم أن كلمة الأدب تؤدي
هذين المعنيين ، كالتعبير الذى اصطلح عليه ، فادب العلم ، الذى
هو علم الأدب ، غير أدب النفس ، الذى هو حلية النفس وطايعها
في مكارم الأخلاق ، وظنوا اننى عنيت ببحث أدب القرآن من
ناحية العلوم الأدبية وفنونها فتعرضت لما في القرآن من بلاغة
وفصاحة ، ولغة ونحو ، وصرف وقواعد وما الى ذلك من ضروب
البيان وأبوابه الواسعة ، فلما سئلت في ذلك أجبت : بأن أدب

القرآن من هذه الناحية ، انما هو موضوع يهم الخاصة من رجال العلم والفضل ، والمتعلقين بالبحث والتمحيص ، للوقوف على ما فى القرآن الكريم من بلاغة وفصاحة وبيان ، وما ورد فيه من غريب اللغة ومفرداتها وقواعدها ، فهو يهم من هذه الناحية طائفة خاصة من طبقات الناس بل من صنفوة طبقاتهم المتعلمة التى تفهم معنى هذه الابحاث حق فهمها ، فالبحث اذا فى الموضوع من هذه الناحية المحدودة هو فى نظرى بحث محدود الفائدة يحدود قرائه وقتهم فى كل أمة من الأمم العربية والاسلامية لانه من المفهوم أنه ليس كل الناس وليس سواد الشعوب وجمهرة الأمم من التعليم العالى بالدرجة التى تخول لهم فهم هذه الابحاث حق فهمها .

وبالتالى ، فان فصاحة القرآن الكريم وبلاغته ، وما فيه من ضروب البيان ، كل ذلك شىء تناقلته الالسنة وحفظت به المؤلفات وحفيت فيه أقلام الكتاب من فطاحل العلماء ، منذ العصر الذى نزل فيه القرآن الى اليوم ، فى كل أمة وكل زمان . فالكتابة فيه ليست بجديدة فى موضوعها ، وموضوعها ليس بمجهول من أولئك الجيلة من العلماء المبرزين ، والفطاحل المؤلفين ، الذين عالجوا هذه الابحاث فى مؤلفات ضخمة حفلت بها المكاتب المصرية وعرفت لجميع المتأدين وتداولتها أيديهم وأبصارهم وأذهانهم .

وقد خلصت من هذا الى تقرير : أن الناحية العلمية فى القرآن ، انما هى ناحية لا يفهمها — حق فهمها — الا تلك الطائفة الجليلة من العلماء • من الذين يؤهلهم تعليمهم ومؤهلاتهم العلمية والذهنية الى استساغة معانيها وقواعدها •

أما الناحية الأخرى التى قصدت اليها من تأليف هذا الكتاب ، فهى الناحية الأوسع انتشارا ، والتى يستطيع كل فرد متعلم تعليما عاديا أن يفهمها ، والتى هى تهم كل فرد من أبناء البشر ، لأنها الناحية المتعلقة بالانسان فى حياته اليومية ، فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين والديه اللذين هما أقرب الناس اليه ، وفيما بينه وبين ذوى قرباه وذوى رحمه ، وفيما بينه وبين الناس بصفة عامة ، وما يدخل فى ذلك من حقوق ومعاملات ، وآداب خاصة وعامة ، وشئون اجتماعية وأخلاقية ، وعمرانية واقتصادية وآداب الانسان فى معاشرة أهله ومعاشرة غيرهم من الناس ممن تضطره ظروف الحياة وملابساتها الى الاحتكاك بهم فى غدواته وروحاته •

بل لم يقتصر القرآن الكريم على ذلك ، فتعرض لأدق شئون الانسان فى حياته الخاصة ، كآداب الاستئذان فى الأسرة ، وآداب الاستئذان فى دخول البيوت ، وآداب التفسح فى المجالس ، وما الى ذلك من الشئون الخاصة المتعلقة بأخلاق الناس وآدابهم ، مما يجده القارئ مفصلا فى كتابنا هذا •

والقرآن الكريم أوسع من أن يحده بيان أو مؤلف أو مؤلف .
مهما اتسعت الصفحات وسمت المدارك وتنبهت العقول . وقد حفل
بجميع شئون الخلق في عباداتهم ، وفي معاملاتهم وفي جميع
أحوالهم الخاصة والعامة كما أسلفت القول ، وبدا لي أن في
القرآن من هذه المواضع جميعا ما لو حاولت تفصيله أو
التعرض له بالإشارة لاستوعب منى مجلدات ضخمة وزمنا
لا يحيط به العمر المحدود . علاوة على أن ذلك التفصيل بجملته
يكون موضوعا عاما يخرج بي عن نطاق الفكرة التي حددتها في
تأليف هذا الكتاب ، أو على الأصح ، الفكرة التي بعثتني على
تأليفه بهذه الصورة .

فالأمة الإسلامية الصحيحة ، انما قامت في حياتها العامة
والخاصة ، على أساس القرآن الذي هو هاديها المرشد الى كل
شأن جليل أو ضئيل من شئون حياتها . وقد كان الأمر كذلك
في فجر الاسلام وضحاها ، وتقول — في فجر الاسلام وضحاها
لأن كثيرا من الأمم الإسلامية تعطلت بعض التحلل من بعض
تعاليم القرآن والاسلام ومبادئها وأخذوا يعملون ويسيرون على
قواعد عرفية وعقلية زعموا أنها ملائمة لعصورهم الحاضرة وما
اقتضته من تطور ، وهم في ذلك جد واهمين ، ففي فجر الاسلام
وضحاها ، أي في زمن الرسالة المحمدية وعهد الخلفاء الراشدين
والصحابية ، كان القرآن هو القاموس الوحيد لمعاجم هذه
الحياة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو مرجعهم فيه مدة

حياته . ثم كانت أحاديثه الصحيحة الثابتة ، مرجعهم بعد وفاته
في أنظمة حياتهم ومعاملاتهم وشؤونهم من عامة وخاصة .

فالفكرة التي رمى اليها مؤلف هذا الكتاب ، هي انه نظر
الى القرآن الكريم نظرة اجلال واكبار واحترام ، بعد أن اشربت
نفسه حب القرآن وبعد أن وفقه الله الى دراسته دراسة عميقة ،
والوقوف على كثير من معانيه السامية الحكيمة . وقد رأى
المؤلف أن في القرآن الكريم من شتى المواضيع ما أصبح دستوراً
عاماً للأمم الاسلامية وأصبح نظاماً حكومياً دينياً ودنياً يجب أن
تسير بموجبه الأمم الاسلامية وتطبقه الحكومات التي لها الولاية
على المسلمين ، كأحكام القصاص واقامة حدود الله وتوزيع
العدل بين الناس بواسطة الهيئات الحاكمة وشؤون التسيير
وأمر النكاح وما الى ذلك من الأمور التي يرجع أمر تنفيذها
الى السلطات الحاكمة . فلم يتعرض المؤلف لهذه الناحية من
نواحي القرآن على اعتبار انها ناحية يرجع أمر تنفيذها عملياً الى
الهيئات الحاكمة كما قلنا وهي مسائل تشريعية لم يعد أمرها
حافياً على أحد من الناس لانها من قواعد دينهم الذي يسرون
عليه ، سواء عملوا بها أو لم يعملوا .

ورأى المؤلف في القرآن ناحية أخرى هي ناحية الفرائض
والعبادات والأمور المتعلقة بطاعة العبد لربه كالصلاة والزكاة
والصوم والحج ، وهذه الناحية لم يتعرض لها المؤلف لأن ما كتب
في موضوعها قديماً وحديثاً لم يترك مجالاً لكاتب أو لقاتل ،

ولأن كل مسلم أصبح بفطرته أو بأبسط ما يتلقنه من القواعد أو المعلومات ، ملما بأركان دينه عارفا لها سواء عمل بها أو لم يعمل .

وانما الرأي الذي أخذ على المؤلف مذاهب تفكيره ، هو انه استشف من أسرار القرآن ، الناحية التي يقرأها الناس ولا يلقون بالهم اليها ، وهي الناحية التي يمكن الاستفادة منها استفادة عملية في كل شئون الناس في حياتهم اليومية ، وأعنى بها الناحية التي تتعلق بحياة الناس في أعمالهم وعلاقاتهم ببعضهم وآدابهم العامة والخاصة ، ومكارم الأخلاق ومعاملاتهم الأدبية والمادية وما يتعلق بالمحافظة على صحتهم وعلى ثروتهم وعلى سعادة الأسرة وعلاقات الآباء بالأبناء وعلاقاتهم بذوى قرباهم وتبادل العطف والمحبة والمواساة بين بعضهم البعض ورفع مستوى الأخلاق وترقية حالتهم الاجتماعية والخلقية وكل ما يؤدي الى سعادتهم وهنائهم ورفاهيتهم .

هذه الناحية الاجتماعية الأخلاقية العمرانية ، التي هي أساس الحياة اليومية لكل الناس ، هي الناحية التي ملكت مذاهب الرأي على المؤلف ، بعد أن استشف من قواعدها المرسومة في القرآن ما ينهض بها الى أرفع أوج يشهد بعظمة الدين الاسلامي وينطق بعظمة القرآن ويأنه كتاب منزل من لدن الحكيم الخبير ، الذي هو عالم بسر خلقه ، وبسر طريق السعادة التي هم عنها في ضلال مبين ، وقد استهوت المؤلف هذه الفكرة ، فعمل جاهدا على اخراجها الى حيز الوجود ، وذلك باقتفاء الآيات الحكيمة

التي حفل بها القرآن في هذه المعاني ، وتقديمها الى القراء في ثوب من البساطة سهل معه فهمها ، وفهم الاغراض التي رمت اليه من اسعاد البشر ، فهو سبحانه وتعالى في غنى عن عباده وعن عبادتهم والذبايح التي تذبح تقربا اليه لن يناله دماؤها ولا لحومها وانما هي مبادئ سامية ترمى الى تقرير أشرف الأغراض وأنبى الغايات .

وقد اتسعت مذاهب البحث وتشعبت مسالكه على مؤلف هذا الكتاب عندما حاول اخراج فكرته من حيز التفكير الى حيز التنفيذ لأن النظريات تختلف عن العمليات ، اذ اجتمعت لديه طائفة من آى الذكر الحكيم في هذه المواضع وفي المواضيع المتصلة بها ما لو أراد مجاراة رغبته الملحة في تتبعها وتفصيلها ، ثم تتبع شروعاتها وتفصيلها ، لنفذ العمر دون الوصول الى غايته ، لغزارة البحث وسعته ، وعمقه ، وهنا لم يجد بدا من الاقتصار على ما وصل اليه جهده المحدود الضئيل مقتنعا بالمساهمة في الدعوة الى الله بما آداه من واجب في دائرة الحد الذي وفق اليه ، مواصلا البحث في الموضوع الذي هو بسبيله على ما تتبع له الحياة من مدى ، سائلا الله أن يلهمه التوفيق فيما هو فيه من مواصلة الجهد لاكمال تحقيق الفكرة التي يعمل لاتمامها في كتاب آخر يتصل بموضوع هذا الكتاب .

وغاية ما أرجوه اذا ، هو أن أكون قد ساهمت في الدعوة الى الله ، واثارة الطريق الى الحق ، وقيادة الناس الى سبيل سعادتهم

الدينية والدينية ، لاني شديد الاعتقاد ، بأن الناس لو اتبعوا
نوامر دينهم وأحكام قرآنهم ، وما جاءهم فيه من الحق ، لساروا
على النهج المؤدى بهم الى السعادة الكاملة التي ينشدونها وهي
بين أيديهم ، فقد طالما كتب كتاب الشرق والغرب ، وبحثوا طويلا
، وضعوا أئمن الجوائز وأغلاها لمن يدلهم على السعادة ولم يعرفهم
ما هي وأين طريقها . وقد كتبوا في ذلك كثيرا وطويلا . وأكثر
من خاض هذا الموضوع لم يوفق الى تعريف السعادة أو ما هو
الطريق الموصل اليها .

أما تعريف السعادة في رأى كاتب هذه السطور ، فهو أنها
هي الحياة الطيبة المشمولة بهدوء البال فلا يكدر صفوها من
الحوادث الانسانية مكدر ، كأن تكون متمتعا بالصحة الجيدة
والعيشة الهادئة آمنة من الخصومات بينك وبين غيرك من الناس
على صلة طيبة بجميع من تحب ، حائزا لرضاء ربك وذويك في
سطة من العيش . وهذه الامور لا يمكنك أن تتوفر على اقتنائها
الا من طريق الدين ، وطريق الدين الذي نعينه هو اطاعة أوامر
ربك واتخاذ القرآن الكريم اماما لك وبراسا تقتدى به وتهتدى
بهدهاء ، في كل ناحية من نواحي حياتك سواء العامة والخاصة
وسواء الدينية منها أو الدنيوية ، فاذا انت فعلت ذلك بحق
واخلاص ، واتبعت ما جاء في القرآن بهذا الصدد ، أمكنك أن
تصل الى طريق السعادة المنشودة وغيرك يتخبط في طريقه ،
يلتس اليه النور فلا يعرف مصدره العظيم ، فكتاب أدب القرآن

إذا ، هو التبراس المضيء أمامك هذا الطريق ، بله نفسه الطريق
المؤدى بك الى السعادة الحقيقية فى دنياك وآخرتك ، ولعللى
حين أصف كتابى بهذا التعبير أكون قد مدحته فى نظر من
يقراءون هذه الجملة ؛ وليس من المتعارف أو المتواضع عليه أن
بمتدح مؤلف تتاج فكره ، ولكننى فى الواقع أمتدح كتابى .
بملاء ماضى فخرا وبكل ما فى من قوة ، وأدعو الله أن يثينى
عليه كل المشوبة ، وأن يهدى به خلقا كثيرا . وذلك لسمو
موضوعه وسمو فكرته ، وانه مستمد من كلام الله سبحانه
وتعالى ومن تعاليم دينه الحنيف ، وأوامر قرآنه الكريم ، وحسبه
انه « أدب القرآن » وكفى .

والله الموفق .

الباب الأول في الشؤون الأخلاقية

- ١ - النهي عن الظن السوء والغيبة
- ٢ - الأمر بالحسنى
- ٣ - تحريم السخرية والاستهزاء
- ٤ - النهي عن الغضب وما يجر إليه
- ٥ - مكارم الأخلاق
- ٦ - النهي عن شح النفس

النهي عن الظن السوء والغيبة

قال الله تعالى في محكم تنزيله :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أوجب أحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه • واتقوا الله ان الله تواب رحيم » •

جاء في تفسير هذه الآية ما يأتي :

يقول الله ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون اثما محضا ، فليتجنب كثير منه احتياطا وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انه قال « ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن الا خيرا وانت تجد لها في الخير محملا » • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاسناد عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباعضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » وقال الطبراني بإسناده عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لازمات لامتى : الطيرة والحسد وسوء الظن »

فقال رجل وما ينهين يارسول الله من هن فيه ، قال صلى الله عليه وسلم « اذا حسدت فاستغفر واذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض » ، وقال سفيان الثوري عن راشد بن سعد عن معاوية قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « انك ان اتبعت عورات الناس افسدتهم او كدت ان تفسدهم » (ولا تجسسوا) أى على بعضكم بعضا والتجسس غالبا يطلق فى الشر ومنه الجاسوس أما التجسس فيكون غالبا فى الخير كما قال عز وجل اخبارا عن يعقوب انه قال (يابنى اذهبوا فتجسسوا من يوسف وأخيه) وقد يستعمل كل منهما فى الشر كما ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ولا تجسسوا ولا تحسسوا .. الخ » والتجسس البحث عن الشيء والتجسس الاستماع الى حديث القوم وهم له كارهون *

وقوله تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا » فيه نهى عن الغيبة وقد فسرهما الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، قيل يارسول الله ما الغيبة ، قال (ذكرك أخاك بما يكره) قال أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال صلى الله عليه وسلم (ان كان فيه ما تقول فقد اغتبتته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) وجاء فى الاثر أن امرأة دخلت على عائشة فلما قامت لتخرج أشارت عائشة رضى الله عنها للنبي بيدها — أى أنها قصيرة فقال النبي (اغتبتيها) والغيبة محرمة بالاجماع ولهذا شبهها الله تعالى بأكل لحم الميت وهذا من التنفير والتحذير منها كما

قال صلى الله عليه وسلم يصف العائد في هبته انه (كالكلب
يقىء ثم يرجع في قيئه) وثبت في الصحاح وغيره انه قال صلى
الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع (ان دماءكم وأموالكم
وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في
بلدكم هذا) وورد أيضا أنه قال : (كل المسلم على المسلم حرام
ماله وعرضه ودمه حسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم) .

وقد وردت أحاديث كثيرة لا تحصى بأسانيد شتى في مختلف
كتب الاحاديث كلها في موضوع الغيبة لا يتسع النطاق هنا
لحصرها وسردها كما وردت أقوال مأثورة من كافة الصحابة
والخلفاء الراشدين وغيرهم في ذمها واستنباحها ، والآية القرآنية
صريحة الدلالة على الغرض الذى يرمى اليه المشرع الأكبر سبحانه
وتعالى من تحريم هذه الخلعة الذميمة والنهى عنها واجتنابها لمفاهيه
من الأذى الذى يحيق بينى الانسان من وراء انتشارها وذيووعها
بين الناس .

والواقع ان هذه الآية الكريمة نبهت الى كثير من الأشياء
التي يتواتر وقوعها بين الناس فى كل لحظة من لحظات حياتهم ،
والتي هى من أسباب الفتن بينهم والتنافر والبغضاء ، فأمر
سبحانه وتعالى باجتنب كثير من الظن لأن بعض الظن اثم ونهى
عن التجسس والاعتياب وجعل الغيبة مثل أكل لحم الميت مبالغة
فى التنفير منها وتحقيرها والتحذير عنها ، فليتدبر المسلمون هذه
المعاني السامية ان كانوا للحق متبعين .

الأمر بالحسنى

كثيرا ما تكون كلمة صغيرة ، سببا فى ايقاد نار عداوة
وبغضاء بين فريقين متحابين ، أو بين فريقين متحاذقين ، وذلك
مشاهد وملمسوس فى كل مجتمع من المجتمعات العالمية ، بل
لا نغالى اذا قلنا : رب كلمة أثار حريا أو لاجابة سببت ضربا .
وقد أثبتت الحوادث الجارية المتعاقبة بتعاقب الملون وك
الجديدين ، ان كثيرا من مشاكل الافراد والجماعات أحدثتها
كلمة نائية . أو لاجابة جافة ، ولم يقف الأمر عند حد الملاحاه
والتراشق وانما يتعداه الى سفك الدماء وايجاد الضغائن وتوتر
القلوب بالتره والبغضاء .

والقرآن الكريم ، عمل بما فيه من حكمة سامية على اجتناب
هذا الداء من أصله ، لو التفت اليه المسلمون وعملوا به .
يقول الله تبارك وتعالى « وقل اعبادى يقولوا التى هى
أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوه
مبيناً » .

وفى تفسير هذه الآية يقول المفسرون :

(يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله ، ان يأمر عباده الله
للمؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن

والكلية الطيبة) فانهم ان لم يفعلوا ذلك نزع الشيطان بينهم
وأخرج الكلام الى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، ولهذا
فهى أن يشير الرجل الى أخيه المسلم بحديدته فان الشيطان ينزع
فى يده ، أى فربما أصابه بها وجاء فى الحديث عن أبى هريرة
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال « لا يشيرن أحدكم
الى أخيه بالسلاح فانه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى
يده فيقع فى حفرة من النار) •

وجاءت أحاديث أخرى فى مثل هذا المعنى لا تعد ولا تحصى
والخلاصة الاستفادة من كلام الله ، ومن كلام نبيه الكريم ، ان
الانسان يجب أن ينزع الى القول بالتي هى أحسن ، واستعمال
المعروف مع الناس بدل العداوة والشحناء ، وتجنب السفه فى
الملاحاة التى لا تؤمن ، مغبتها ولا يتقى شرها •

فلو توفر الناس على اتباع هذه الحكمة الغالية ، لسلكوا
سبيلا من السبل المؤدية الى سعادتهم فى دنياهم ، ذلك علاوة
على مشوبة الله التى يجزى بها عباده المخلصين فى كل عمل من
أعمال الاحسان فتجتمع لهم مغفرة الله ورضوانه وجزيل ثوابه ،
مع سعادة الدنيا ومع صفاء الود وحسن المعاشرة بين الاخوان من
آفراد وجماعات ودفع المكروه والعداوة بينهم •

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره »

تحريم السخرية

والاستهزاء والمنافسة بين الناس

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

هذه الآية الكريمة ، تتعلق بموضوع خطير يتناول الناس في حياتهم اليومية ، وفي بيناتهم المختلفة ، الكبار منهم والصغار الرجال منهم والنساء لأنه يمس ناحية من نواحي الأخلاق العامة الشائعة بينهم ، ويتناول ما يقع بينهم في كل وقت ولحظة فكثيرا ما تكون السخرية أو الاستهزاء أو المنافسة أو اللمز ، سببا خطيرا من أسباب التباغض والتعامل والشقاق والشحناء ، بل سببا من أسباب الفتنة بين الناس ، وما تؤدي اليه الفتنة من شر مستطير .

فلنذكر ما جاء في التفسير خاصة بهذه الآية ، قال المفسرون :
ينهى الله تعالى عن السخرية بالناس أى احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

انه قال (الكبر بطر الحق وغمص الناس - ويروى - وغمط الناس) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فانه قد يكون المختقر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب اليه من الساخر منه المحتقر له ولهذا نزلت الآية فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء .

وقوله تعالى « ولا تلمزوا أنفسكم » أى لا تلمزوا الناس والهماز اللزاز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى « ويل لكل همزة لمزة » والهمز ما يكون بالفعل ، واللمز ما يكون بالقول . كما قال تعالى « هماز مشاء بنميم » أى يحتقر الناس ويهزهم طاغيا عليهم ويمشى بينهم بالنميمة وهى اللمز بالمقال ولهذا قال « ولا تلمزوا أنفسكم » كما قال « ولا تقتلوا أنفسكم » أى لا يقتل بعضهم بعضا .

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما « ولا تلمزوا أنفسكم » أى لا يطنى بعضهم على بعض .

وقوله تعالى « ولا تنازروا بالألقاب » أى لا تداعوا بالألقاب وهى التى يسوء الشخص سماعها .

وخلاصة هذه الآية الكريمة انها تحرم على الناس السخرية من بعضهم والاستهزاء ببعض ، وقد قال الشاعر :

تري الرجل الضيف فتزدرية
وفي أثوابه أسد همسور
ويعجبك الطير فتزدهيه
فيخلف ظنك الرجل الطير
كما حرمت على الناس التنايز بالالقاب ولز أنفسهم • فهل
سمع الناس وهل وعوا •

النهي عن الغضب وما يجز اليه

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

« والكاذبين الغيظ والمافين عن الناس ، والله يحب
المحسنين » •

جاء في تفسير هذه الآية الكريمة ما يأتي :

أي اذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه ، فلم يعلموه
وعفوا مع ذلك عن أساء اليهم وقد ورد في بعض الآثار «يقول
الله تعالى : يا ابن آدم اذكرني اذا غضبت فلا أهلكك فيسن أهلك »

وقد ورد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
« ليس الشديد بالصرعة (١) ولكن الشديد الذي يملك نفسه
عند الغضب » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما تعدون
الصرعة فيكم) قلنا الذي لا تصرعه الرجال قال (ولكن الذي
يملك نفسه عند الغضب) وقال (الصرعة كل الصرعة الذي
يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه)

وقال الامام أحمد حدثنا ابن نمير عن الاخنف بن قيس عن
عم له يقال له حارثة بن قدامة السعدي انه سأل رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قل لى قولاً ينفعنى وأقلل على
لعلى أعيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تغضب)
فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول لا تغضب .

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (من كظم
غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً) .

والعافين عن الناس ، أى مع كف الشر يعفون عن ظلمهم فى
أنفسهم فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكمل
الأحوال ولذا قال (والله يحب المحسنين) فهذا من مقامات
الاحسان .

هذا بعض ما ذكره المفسرون فى شرح الآية وبعض ما أوردوه
من الأحاديث الكريمة فى النهى عن الغضب ، والأحاديث كثيرة .
أما فى الواقع المشاهد فإن الغضب شعبة من الجنون وقطعة
منه . فكم من الجرائم الدامية يرتكبها الشخص تحت تأثير
الغضب وكم من الأفعال المخزية تصدر عن الانسان وهوى حالة
الغيظ حتى اذا ما هدأ وزالت عنه سورة الشر ، عاد فعرض بنان
الندم ألف مرة على ما فرط منه فى غضبه ، وقد يقع منه أحيانا
بعض الأشياء التى لا يمكن تداركها ولا يصلحها الاعتذار .

ومهما أردنا أن نتوسع فى هذا الباب ، فانه لا يسكننا أن
نحيط بمقدار الشرور الأثيمة التى يكون الغضب سببها الأول ،
والباعث عليها ، ذلك بأن الكثرة الغالبة من جرائم المجتمع

الانسانى لو عمل لها احصاء دقيق لردت الى باعث واحد ، هو
جموح النفس فى ثورتها وترك قيادتها لاهواء الشر حيث تطوح
بها الى مالا يعلمه الا الله من العواقب الوخيمة السيئة .

وفى رأينا أنه لا يمكن أن يقع حادث سىء ترتكب فيه جناية
أو معصية ، الا ونفس صاحبه تكون مشرية بالغضب فالانسان
لا يرتكب عملا اذا الا اذا استفز اليه بأى دافع من الدوافع حسب
أسبابه وظروفه وهذا الاستفزاز الذى قد تولده أى الأسباب
هو نفسه الغضب أو الذى يوجد الغضب فى النفس فاذا وجد
ثار بالنفس وسول لها السوء وزين لها ما هى بسبيله من معصية
أو اعتداء ، وذلك بخلاف ما اذا امتلك الانسان نفسه وراجعها
وراضها ، وحملها على كظم الغيظ فهناك تحمد المغبة ويزن
الانسان نفسه ويملك أعصابه فينظر الى ما هو واقع بين يديه
بنظر الحقيقة الصافية المجردة عن زخرف اغراء الغضب واغوائه
ان صح هذا التعبير — ويشوب الى رشده فلا يقع فى محذور
أو مكروه ولا يسىء ولا يساء .

ومن أكمل صفات مكارم الأخلاق بعد ذلك أن يعفو المقتدر،
بعد أن يكظم غيظه ، لا أن يعفوا غير المقتدر ، لأن شرط العفو
هو كما قال المتنبي :

كل حلم أتى بغير اقتدار
حجة لاجيء اليها اللئام

مكارم الأخلاق

يمدح الله بها نبيه

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في القرآن الكريم :

« واثق لعلى خلق عظيم » .

آية قصيرة من القرآن بل جملة تتألف من أربع كلمات فقط، ولكنها تحوى فى مجموعها أكبر المعانى وأسمائها ، وأجدرها بالامعان والتقدير ، ونحن نجمل لك معناها فى ايجاز ، لانه ليس من المستطاع ولا فى مجلد كهذا أن نعرض بالتفصيل لأخلاق سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم فالقرآن الكريم وصفه اجمالا بأبلغ وصف جامع ، فقال : « واثق لعلى خلق عظيم » وعائشة رضى الله عنها سئلت عن أخلاق النبي فأجابت باجابة موجزة تمثل فيها كل معنى البلاغة وتشتمل على كل ما يذهب اليه التفصيل من اسهاب ، أجل . لقد سئلت عائشة عن أخلاق النبي ، فقالت انها « القرآن » وحسبك بهذه الاجابة .

قال الامام أحمد حدثنا أسود بسنده عن رجل من بنى سواد قال سألت عائشة عن خلق رسول الله ، فقالت أما تقرأ القرآن « واثق لعلى خلق عظيم » قال قلت حدثيني عن ذلك ، قالت صنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما فقلت لجاريتى اذهبي

فان جاءت هي بالطعام فوضعتة قبل فاطرحتى الطعام ، قالت فجاءت
بالطعام قالت فألقت فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطم فجمعه
رسول الله . الحديث .

وفي روايات كثيرة ان عائشة سئلت عن خلق رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقالت هو القرآن ، ومعنى هذا انه عليه
الصلاة والسلام صار امثال القرآن أمرا ونهيا وسجية وخلقا
لطبعه فما أمره القرآن فعله وما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جيله
الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح
والحلم وكل خلق جميل كما ثبت في الصحيحين عن أنس انه قال:
خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قال لشيء
فعلته لم فعلته ولا شيء لم أفعله : ألا فعلته .

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق معمر عن الزهري عن
عروة عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بيده خادما قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئا قط الا أن
يجاهد في سبيل الله ولا خير بين شيئين قط الا كان أحبهما اليه
أيسرهما ، حتى يكون اثما فاذا كان اثما كان أبعد الناس من
الاثم . ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه الا أن تنتهك حرمة
الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل ، وعنه صلى الله عليه وسلم انه
كان يقول « خياركم أحسنكم أخلاقا » وعنه انه قال « بعثت
لأتم مكارم الأخلاق » وورد عن أنس قال كنت أمشي مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه

اعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة ورجع النبي في نحر الاعرابي حتى نظرت الى صفحة عاتق الرسول فاذا قد أثرت بها حاشية البردة ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت اليه رسول الله ثم ضحك ثم أمر له بعتاء .

وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وان الله تعالى يبغض الفاحش البذيء » وقال أيضا لأصحابه « أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار . قالوا الله ورسوله أعلم . قال فان أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان الفرج . والنم . أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة . قالوا الله ورسوله أعلم . قال فان أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق » .

وعن عائشة قالت سمعت رسول الله يقول « ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » .

وخلاصة ما نختم به هذا الباب ، أن مكارم الأخلاق هي أفضل تاج يضعه الانسان على رأسه بعد تاج الاسلام بل ان الاسلام قائم على مكارم الأخلاق كما هو ثابت من القرآن الكريم ، وحسبك أن تعلم أن أخلاق النبي الكريم التي مدحها الله ، انما هي أخلاق القرآن لأنه تأدب به ومنه . فليعتبر المعتبرون .

النهي عن شح النفس وما يؤدي اليه

طبع الله سبحانه وتعالى النفس الانسانية على صور مختلفة من الغرائز فركب فيها الخير والشر ، ووهبها قبسا وهاجا بل شمعة نيرة كي تضيء بها المحجج . وتستوضح السبل ، وقد قرن الله سبحانه وتعالى التكليف بذلك القبس الذي وهبه لعباده ، فمن أتم عليه نعمته به الزمه بما ألزم به خلقه من العباداة والطاعة ، ومن حرمه منه أسقط عنه الواجبات بسقوطه .

ونظن أن القارىء فى غنى عن أن نقول له ان ذلك القبس الذى نشير اليه ، ليس هو سوى « العقل » الذى أنعم الله به على عباده فجعلهم بنعمته يستطيعون التمييز بين الخير والشر ، وبين الضار والنافع ذلك العقل الذى يقول عنه سبحانه وتعالى فى حديث قدسى « وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أعسر منك ، بك آخذ وبك أعطى ، وبك أحاسب وبك أعاقب » .

ومن الصفات الانسانية ، أو بتعبير آخر من الغرائز النفسية ، غريزة الشح فى كل نفس ، فهى طبيعة أصلية فى الانسان تقابلها طبيعة الكرم ، وهاتان الغريزتان هما من الطباع الأصلية فى النفس

البشرية وهما تتصارعان في كل نفس فمن تكون لها الغلبة يكون لها الظهور والبروز ورجحان الكفة •

وغريزة الشح في النفس ليست من غرائز الخير في الانسان بل هي على العكس سبيل من سبيل الشر والفساد ، وكثيرا ما يعاني المجتمع الانساني من أهوائها الأهوال ، لذلك عينا بأن نفرد لها بحثا خاصا كما عنى القرآن الكريم بالتنبيه اليها والتحذير منها • على أن القرآن الكريم أفاض في الحديث عن التبذير والاسراف وكذلك في الحديث عن البخل والامساك ، ولكنه أوضح بصفة خاصة هذه الغريزة بأن افرد للكلام عنها فقرة من فقراته وان شئت فقل آية من آياته البيّنات ، فقد قال سبحانه وتعالى :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

وقد سبق أن تقدم الكلام على البخل والامساك ، وعلى التبذير والاسراف ، بتفسير ما ورد بشأن تلك الخصال مما هو مثبت في مكانه وانما أردنا هنا بالتحديد أن تتكلم عن الشح الذي ورد بالتخصيص في هذه الآية ، فقد قال المنسرون بصدد ما يأتي :

قال أحمد ، حدثنا عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) •

وروى الأعمش وشعبة عن عبد الله بن عمر ، حديثا مثل هذا
في المعنى وان كان يختلف في النص بعض الاختلاف .

وروى عن أبي هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف
عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والايمان في قلب عبد أبدا) .
وروى عن أبي الهياج الأسدي قال كنت أطوف بالبيت فرأيت
رجلا يقول (اللهم قنى شح نفسي) لا يزيد فقلت له : فقال انى
اذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل . واذا الرجل
عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه . وعن أنس بن مالك عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (برىء من الشح من
أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائة) .

هذه بعض الأقوال التي وردت في (الشح) وقد بقي علينا
أن نذكر ما جاء في معنى هذه الكلمة لأنها كما قلنا لا تقف عند
معنى البخل كما يظن البعض ، فالشح في لغة العرب البخل
الشديد ومنع الفضل ، وقال ابن عمر ، ليس الشح أن يمنع الرجل
ماله انما الشح أن تطمع عين الرجل الى ما ليس له وقال سعيد بن
جبير الشح هو أخذ الحرام ومنع الزكاة ، وقيل الشح هو الحرص
الشديد الذي يحمله على ارتكاب المعاصم ، وقال ابن زيد (من
لم يأخذ شيئا نهاه الله عنه ، ولم يدعه الشح الى أن يمنع شيئا
من شيء أمره الله ، فقد وقاه شح نفسه) .

هذا هو الشح عافاك الله وأقالك منه ، فانظر الى آية خلة
ذميمة ينزل المتشح به ، والى أى درك عميق ينزل المتصف به .
وقد صدق الحديث الذى تقدم فى قوله « برىء من الشح من
أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى فى النائة » وكيف لا يكون
كذلك أى وكيف لا يبرأ من الشح من تكون هذه خصاله ، وهى
خصال ان لم تكن هى الكرم المحض فهى الوقاية من الشح ،
وكلاهما على حد سواء .

وفى الواقع أن الشح بمعناه الذى ورد فى الآية ، أى معناه
الصحيح المتعارف عليه ، انما هو خلة مذمومة مهينة تنزل بصاحبها
الى الدرك الأسفل فى دنياه وآخرته وقد صدق القائل .

« أذل الحرص أعناق الرجال »

وليس كالشح خلة تحمل صاحبها على قبول المهانة ، والرضى
بالدنية ان لم يتعدى الأمر ذلك الى اقرار المحرمات واستباحة
المنكرات لأن الشحيح والعياذ بالله ، يعميه شحه عن كل ماعداه ،
فهو يفرط فى كرامته ارضاء لشحه ويتسامح فى عرضه ارضاء
لشحه ويستمرى المواقات ويستهن بالمخزيات والمنتديات ، كل
تلك فى سبيل شحه الذى يزين له كل أولئك والعياذ بالله .
ومن هنا أفرد القرآن الكريم هذه الآية بالتخصيص على الشح
والتوقى للتنبه منه ، نسأل الله منه الوقاية والسلامة .

الباب الثاني في الشؤون الاجتماعية

- ١ - الخمر مبعث الجرائم .
- ٢ - أثر الشريعة في قطع دائرة الجرائم .
- ٣ - السحر في معتقدات العامة .
- ٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن التفرق والاختلاف .
- ٥ - وجوب التثبت في تصديق الأقوال ، وقصة بنى المصطلق .
- ٦ - الاستقامة من أسباب السعادة .

الخمير

أم الكبائر ومبعث الجرائم وفساد الأخلاق

تعب العالم من أقصاه الى أقصاه ، فى معالجة مشكلة الخمر ، وما تسببه من المشاكل بين الأفراد والجماعات ، وما تبعث عليه من الجرائم ، وما تبثه من فساد الأخلاق ، ولم تزل الأمم والحكومات ، قائمة قاعدة • قلقة متحيرة ، فى بحث هذا المشكل الأخلاقى الاجتماعى العظيم ، وأكبر الظن أنها لن تزال كذلك الى أن تقوم الساعة ، لأن المرض الدفين ، يظل يزعج صاحبه عابى الدوام حتى يحين استئصاله من أرومته ، والا فلن تجدى العلاجات والمسكنات ، الا بمقدار التخدير المؤقت ، حتى اذا ما عاودت الصحو ، عاودت معها الآلام والأوجاع •

هناك أمة من الأمم رأت أن تحرم الخمر وأمة أخرى رأت أن تخفف من حدتها بتحديد ساعات بيعها ، وغيرها اقترحت الحد من غلوائها بتقيص وارداتها ومصنوعاتها ، وهناك غيرها وغيرها ، والحركة قائمة والضجيج مستمر ، والأنين مرتفع ، والصراخ يدوى ، والتأوه يسد المسامع ، والتوجع يستطير بالألياب ، كل ذلك تدمرا من الخمر وما تبثه فى المجتمعات من شرور وآثام ،

وعريضة وارتكاب جرائم وفساد أخلاق ، وما يترتب على ذلك من اشغال القضاء وقيام المحاكمات وبعث الخصومات . وهناك مؤتمرات تعقد في أكثر المدن والعواصم ، وشكاوى تتصاعد الى أجواز الفضاء ، وتفكير تشتغل فيه الادمغة . كل ذلك للبحث عن وسيلة ويتقى بها شر الخسر ، ورفع مضارها وآثامها والخسارة في الواقع المشاهد ، هي أم الكبائر ، سواء اعترفت القوانين الوضعية بذلك أم لم تعترف ، وسواء اصطلحت على ابحاثها أو على منعها . والعجب العجيب أن القوانين الوضعية تبيحها ، وترخص بها وتعترف بآثامها ، وتسهل سبيل ورودها ثم تتذمر من شرورها . وتجنى النفقات الرابحة من تجارتها ثم تصرف النفقات الباهظة على مسح آثار جرائمها . فما هذه المتناقضات ، وما هذا الداء العياء ، الذي أعيا نطس الأطباء ، من مفكرى الأمم وقادتها ، وزعمائها ورجالات الرأى والكلمة فيها ، وما هذه الحيرة كلها فى محاولة الاهتداء الى علاج ناجع ، دون الوصول الى هذا العلاج ، أو الاهتداء الى بصيص من النور يفرج تلك الكربة ، ويزيل ذلك الغم .

ان علاج هذه الحالة المؤلمة التى أدت بالمجتمع الانسانى الى تلك الكوارث ، هو علاج لا أقول انه بين ظهرانينا ولا بين أيدينا ، بل هو أقرب الينا بكثير من تلك الأمثلة ، اذ هو أمام أعيننا وهو فى مثل هذا الضوء القوى الساطع الذى نستتير به النجيل ، ولكنه ضوء قوى ساطع حقيقة ، ونظرا لقوته هذه فلا

يبصره الا قوى البصر سليم البصيرة ، أما ضعيفهما فيعشى بصره
وتعشى بصيرته دون رؤياه ، والا فيماذا تفسر وجود علاج حاسم
كهذا أمام الأبصار فلا تهتدى اليه العيون ، الا أن تكون قسوة
ضوئه أعشت عنه الأبصار - أعنى الأبصار الضعيفة - كما
ذكرت .

ليفضل القارىء وهو مأجور مشكور ، وليسألنى ما هو
هذا العلاج الذى أعنيه ، والذى اشدت به ونوهت عنه . وأنا
أجيبه به فى قوله تعالى :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع
للناس ، واثمها أكبر من نفعها »

وفى آية أخرى : « انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام
رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

اذن . ليس هناك من العلاج النافع ، والدواء الشافى غير
الاستئصال والاجتثاث ، وليس هناك من السبل ما يؤدي الى
راحة المجتمع الانسانى منها ، ووقايتها من آثامها وشروورها ، غير
تجريمها والرجوع الى أوامر القرآن فيها . على أن القرآن لم
يعالج ناحية من نواحيها ، وهى ناحية المنع فقط ، دون الإشارة
الى الناحية الأخرى ، ناحية الغنم منها ، بل عالج الوجهين فيها ،
فقال ان فيها اثما كبيرا ومنافع للناس ، فاما ناحية الاثم ، فهى فى
عصيان التحريم ، وفيما يترتب على هذا العصيان من ارتكاب

المحارم واقتراف الآثام ومزاولة الكبائر ، وكل ما تضج
به المجتمعات العالمية التي تبيح الخمر وتشكو نتائج
إباحتها ، وأما ناحية المنافع فهي ناحية أقل ضآلة من أن تقاس
الى جانب تلك الآثام ، بل ان المنافع يصح أن تعتبر فردية بينما
آثامها ومصائبها ، تعتبر آثاما عامة ومصائب جامعة ، فتاجر الخمر
يربح منها والمتسبب في تجارتها قد يشرى منها ، ولكن المضار
التي تصيب المجتمع برمته من آثامها ومصائبها وشرورها ،
والدماء التي تسفك في سبيلها ومن أجلها ومن النتائج المترتبة
عليها ، والانحطاط الذي يصيب سمعة الأمة من جراء انحطاط
أخلاق المدمنين فيها : ذلك كله مالا يقدر بمال ، وما تفيد في
علاجها الأموال ، ومالا تدرأه أنفس نفائس الدر والجوهر ، ذلك
الى جانب ما تنفقه الحكومات على جنودها ومحاكمها وقضاتها
ومكاتبها من الذين يختصون بمحاكمة الجرائم التي تكون أمخرة
سببها وعاملها الأول .

والقرآن الكريم ، حل هذه المشكلة بجرأة قلم كما يقولون ،
أو بآية صغيرة من محكم آياته التشريعية ، والناس يهلون هذا
الحل ، ويبيكون ثم يتباكون ويضجون ويعولون ، ويصيحون
ويشكون ، ويوجدون الداء ويفتشون عن الدواء ، وهو في
متناول أيديهم وهم عنه لا غافلون بل متعافلون .

لم يبق غير خطتين ، لتتخير الأمم أنبلها وأقومها للسبيل ،
فهذه الخمرة مباحة بترخيصكم ورغبتكم ، ومعاقب على جرائمها

بل وعليها ذاتها في أنظمتكم وقوانينكم ، فاما وقد أبحتموها ،
أن تصطلحوا على فوائدها ومنافعها ، وتتواضعوا على ضرورتها
لحياتكم ، وتتفوا عنها كل خبث ودم ، وتصفوها بانها أم الطيبات
وترفعوا العقوبة عن جرائمها وآثامها ، وتعفوا الناس من عقوبة
ما يرتكبون بسببها وفي سبيلها ومن آثارها ، فنحمد لكم هذه
الصراحة ولو كانت خاطئة .

اما هذه الخطة ، واما خطة أخرى ، تهاون فيها أن الخمرة
رجس من عمل الشيطان ، وتتواضعوا على تحريمها ، فتريحوا
أنفسكم من عناء الاشتغال بجريرتها ، وتريحوا المجتمع الانساني
من مكابدة شرورها وآثامها وترحموا الانسانية من جرائمها
وجنباياتها ، وتبروا دينكم القويم بطاعته والعمل به .

سيقول السفهاء من الناس ، هذا كلام يصدق في الخيال ولا
يجرى مجرى الحقيقة لعذر تنفيذه ، فأجيبيكم بان عصركم لن
يفضل العصر الذي نزل فيه هذا التحريم ، وأممكم ليست أشد
من الأمم التي صدعت بأمر هذا التحريم .
ولى ديني ولكم دينكم والسلام .

أثر الشريعة في قطع دائرة الجرائم

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى .. »

« ... ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب .. »

تعبت الأمم ، في معالجة هذا الموضوع الخطير ، تعباً أقص مضاجعها وافترش لأجسادها الهم والقنوط ، ونظرة سطحية بسيطة ، يلقىها الإنسان على أخبار المجتمعات العامة ، وأنباء الصحف المختلفة ، يظهر له في منتهى الوضوح والابانة ، الهوة السحيقة التي تتحدر إليها الحياة الانسانية ، والغور العميق الذي تنزلق فيه سعادة البشر ، والاضطراب المفجعة التي تصيب الأخلاق العامة في الصميم ، لا شك أن ذلك كله مبعثه شيء من التهاون في اتباع أقوم السبل لتهديب الحياة الانسانية وكبح جماح النفس البشرية ، ولقد اختط القرآن الكريم ، أقوم السبل التي تحوط سياج المجتمع من عبث العابثين وفساد المفسدين ، فقال تعالى في محكم تنزيله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ،

الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأثمي بالأثمي ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من

رُبِّكُمْ وَرَحْمَةً ، فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وهذه الآيات البينات ، تشتمل على كثير من معاني التشريع الالهي الذي يجب على الخليقة أن تتبعه وتصدع به . ولسنا الآن في معرض تبين طرق التشريع في القرآن الكريم وأحكامه ، فالآيات كثيرة في موضوعها ، وبعضها نسخ ببعض ، وانما أردنا أن نشير الى الحكمة الالهية العالية التي وردت في هذه الآية ، وهي قوله « كتب عليكم القصاص في القتلى » ، ومعنى القصاص هو العدل ثم قوله ، « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب »

أجل ان القصاص هو السياج الذي يحول بين الانسانية وبين الوحشية ولولا القصاص ، لتساوت البشرية والحيوانية كما أن أبسط تهاون في تطبيق القصاص يؤدي الى مثل تلك الحالة من الفوضى ويجرد الانسانية من أعلى ما تعتز به من العدالة وعرفان الحقوق . والنفس أمارة بالسوء ، ان لم تردع عن غيها بوازع قوى من الخوف والسلطان ، قد تسترسل في غوايتها الى الحد الذي يتعدى ضرره الى المخلوقات الأخرى والى محارم الله ، ومن هنا كانت فكرة العقوبة الرادعة لاصلاح المجتمع وصياقته . ولقد تكلم كثير من علماء الاجتماع ، وعلماء النفس وعلماء القوانين ، أقوالا كثيرة مختلفة في تشديد العقوبة على المجرم أو عكسها اذ يعتبر بعضهم أن المجرم كالمرضى يجب أخذه بالمعالجة والتنطيب حتى يبرأ من مرضه أو اجرامه ، ويعتبر بعضهم أن

المجرم كالعضو الفاسد في الجسد السليم يجب بتره حتى يبرأ
الجسم من آذاه . وكثر القال والقييل في هذا الموضوع وكثرة
استنزفت الشيء الكثير من الجهودات والتمكير ، مما لسنا بصدد
استعراضه وانما ساقنا الاستطراد الى الاشارة اليه .

وفي رأينا أن سعادة المجتمع ضاعت بين أقوال هؤلاء ، وأقوال
أولئك ، لأن العدالة المطلقة في الدنيا ، انما هي شيء مربوط في
مخالب العنقاء ، أو مناط باعناق السعالي . وبحسبنا أن توجد
العدالة النسبية فتخفف من شقاء الانسانية وآلامها .

أما لو أريد التماس العدالة الحقبة التي لا يأتيها الباطل من بين
أيديها ولا من خلفها ، فما أقرب السبيل إليها ، وما أدناها منا
ونحن عنها صادفون مشيخون . وهي بين أيدينا وتحت أبصارنا .
أجل هذا هو القرآن الكريم ، وهذه آياته البينات ، وهو مصدر
الحكم العظيمة التي تكفل للمجتمع سعادته في كل ناحية من
نواحي حياته اليومية ، وهذا الذي قصدنا الاشارة اليه في الآية
الكريمة « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » وقد قال
فصحاء العرب (القتل أنفى للقتل) .

ويقول المفسرون أن المراد أن تشريع القصاص ، أي قتل
القاتل يحتوي على حكمة عظيمة هي صيانة المهج والنفوس من
الاعتداء لأن القاتل اذا علم أنه مأخوذ بدم المقتول ، أو على
التحقيق اذا علم أنه مقبول بالقصاص ما أقدم على ارتكاب
جريمته ، واثني عزمه عن القتل ، وبذلك تحققت حكمة ، ولكم
في القصاص حياة ، بصون حياة المقتول ودمه المظلوم .

السحر فى معتقدات العامة

حديث السحر والسحرة حديث ابتذله السنة العامة وفاضت به معتقداتهم فى هذا الزمان ، وربما كان فى كل زمان ، وهو خرافة منتشرة ، خصوصا فى طبقات معينة من الطبقات الدنيا فى كل أمة والمضار الاجتماعية والأخلاقية التى تنشأ من وراء العقيدة فيه والإيمان به ، والعمل باوهامه ، انما هى مضار تأصلت فى المجتمع العالمى ونالت من هنائه وسعادته قسما كبيرا بحيث ترتب عليه كثير من الشقاء فى الأسر والمجتمعات .

وقد ورد فى القرآن قرأه « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » وقوله « فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بشارين به من أحد الا بإذن الله » .

ونحن نقول ان السحر فى هذا الزمان خرافة منتشرة ولا تنكر أن السحر علم من العلوم التى كانت معروفة بدليل ما ورد عنه فى القرآن من الآيات وما عرف عنه من القصص والأساطير ، وانما السبب الذى حملنا على أن نقول عنه انه خرافة ، الجهل به فى هذا العصور المتأخرة وما يستغله بعض الدهاة من هذا الجهل وادعاء العلم به ، والتغريب بعقول بعض البسطاء بايهاهم المقدرة

عليه لا بتزاز أموالهم والضحك منهم ، وسواء كان الذين يدعونه
ويستعملونه ، يفعلون ذلك عن علم حقيقي به أو على سبيل الادعاء
ومجرد الكذب ، فهو على كل حال حرام شرعا لما يترتب عليه من
تأنيج الأذى بين عباد الله ، والتي أشار اليها القرآن في قوله ،
« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » .

والسحر وان كان في الواقع من العلوم التي اعترف بها الا
أنه شيء اختلف المفسرون والمتقدمون في شرحه فقال قوم انه
مبنى على مجرد الوهم والتخيل والايحاء وقال فريق آخر انه
قوامه بعض الرقى والاسماء وقد وردت أقوال كثيرة منها ما هو
غريب ومنها ما هو عجيب ولا نرى أن تتعرض لتلك الأقوال لأنه
ليس من غرضنا أن نتقدم الى القراء بتعريف ما هو السحر وما
هو أصله وما هي أغراضه ، ليس ذلك من همتنا ذلك لأنه لا فائدة
لهم من ورائه ولا يعنيه في كثير ولا قليل ، ولأن ما قيل فيه
وكتب عنه شيء كثير جدا وحسبنا أن نشير الى الغرض الذي
قصدنا اليه وهو تبين أن السحر من المحرمات وأنه يستعمل في
الايذاء والتكليل وما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وان بعضهم
يستعمله بسبيل الايهام والتغريب في حين لا يكون هناك سحر
ولا سحرة .

وادعاء السحر هو المشاكل الاجتماعية التي يعانها العالم
اليوم في كثير من جهاته الهمجية منها والمتمدنة ، لأنه خرافة
وجدت لها في كثير من الأوساط اذهانا تقبلها واذهانا تروج لها

وأذهانا تعيش من ورائها وأذهانا تعتقد بها وهذه الأسباب مجتمعة الى جانب ما يشعر به الانسان من غريزة حب الاطلاع والاستكشاف واكتناء الغيوب الى جانب الأمور الخاصة والحالات التي تكون عليها بعض النفوس كمن له مسافر أو قريب مريض ، أو متطلع الى رزق أو عمل ، أو ما شاكل ذلك من حوائج الناس في كل زمن وفي كل أمة . ذلك كله مجتمعا حمل الناس على الايمان بوجود السحر وبقيمته وترتب على ذلك وقوع مضرات في المجتمع الانساني ، أصابته في كثير من نواحيه ، فبعضها في الجانب الأخلاقي ، وبعضها في الجانب الاجتماعي ، وبعضها في غير هذين الجانبين فكم تهدمت بيوت بهذا الوهم وكم شئت أسر ، واريقت دماء وهتكت أخلاق وهو وهم غريب أكثر ما فيه من القوة انه وهم يصيب المتعرض له كما يصيبه المرض سواء بسواء .

والقرآن الكريم صريح العبارة في الاشارة الى هذه المضار الكبيرة ، في تلك الكلمة البليغة التي صور بها أساس الكيان الاجتماعي ، وكيف ينهار عند (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وكفى بهذه الجملة الصغيرة في مبنائها ، الكبيرة في معناها ، واعظا ونذيرا لمن تدبر ووعى .

قلو أن الناس التفتوا الى كلام ربهم ووعوا ما جاء فيه من عظات وعبر ، لأراحوا أنفسهم من عناء المشكلات الاجتماعية

الخطيرة التي يجنون آثامها ويتردون في حماتها ، ويضجون
بالشكوى من بلائها وآلامها .

(فائدة) من أراد أن يطلع على ما ورد في موضوع السحر
والسحرة وتفسير الآيات القرآنية التي وردت فيه ، فليراجع
تفسيرى الشيخين البغوى وابن كثير فى المجلد الأول من الصفحة
٤٢٨ الى ٣٧٠ حيث يجد ثمة الدواء الشافى الذى ينفع غلته
ويشبع نهمته . والله أعلم .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والنهي عن التفرق والاختلاف

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

يقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة - وهي الفريق من الناس ، منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقال أبو جعفر الباقر ، قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ثم قال « الخير اتباع القرآن وسنتي » والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن وان كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع

فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلمه ، وذلك أضعف الايمان) وفي
رواية وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل ، وقال الامام أحمد
بسنده عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو
ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا
يستجيب لكم) .

والأحاديث كثيرة في هذا الباب ، كما أن الآيات القرآنية
التي حفلت بهذه المعاني السامية التي لا تحصى :

والله سبحانه وتعالى ينهى عن التفرقة والاختلاف لما فيهما من
المضرة العظمى والمعصية الكبرى ، بالمجتمعات الانسانية ، وقد
روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع
معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر
فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ان أهل الكتابين
افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الأمة ستفترق
على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الاهواء - كلها في النار الا
واحدة - وهى الجماعة - وانه سيخرج من أمتى أقوام تتجارى
بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا
مفصل الادخله) والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بسا جاء به نبيكم
صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به .

من هذا الذي تقدم يتبين مقدار عناية القرآن الكريم
والأحاديث النبوية بمسألة الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر وهما خلتان لا ينكر فضلها في تقويم الأخلاق البشرية
والمجتمعات الانسانية ، وكذلك العناية بمسألة الائتلاف والنهي
عن التفرق ، فليس بمجسود ما في الجماعة من مصلحة عامة
للجمهور بتوحيد كلمته والتوفيق بين قلوب أبنائه +

وجوب التثبت في تصديق الأخبار وقصة بنى المصطلق

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا ، ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

هذه آية من القرآن الحكيم ، يحسن بنا قبل أن نتعرض لتفسيرها أن نذكر شيئا من أهمية موضوعها • فهو في نظرنا له من الأهمية والخطر في حياة المجتمعات العامة ، وحياة الأسرة على الخصوص ، ما سنعالجه فيما يلي •

كثيرا ما يحدث بين الناس وبعضهم ، أن يتلقى أحدهم حديثا مفترى تنقله إليه السنة خاسئة ، يحمل فرية ذميمة ، فيقبل ذلك الشخص ذلك الحديث كما يتلقى الوحي المنزل ، فاذا به ينقلب على عقبيه طائشا حاقا ، ساخطا غاضبا ، ويثور بالغضب على من ظنه صاحب تلك الفرية ولا يبعد أن يتماسكا أو أن يتطور بينهما الأمر الى شجار أو عراك ، وان شئت فقل سفك دم وانهالك حرمة

واعتداء ، وقل في كل ما يسوله الغضب للمرء من شره وجنون ،
والغضب شعبة من الجنون .

ولسنا نذهب مذهب ضرب الأمثال أو تخيل القصص اذا ما
قلنا أن كثيرا من الحوادث الدامية التي تحز في كبد المجتمع
الانسانى ، والتي كثيرا ما تقوض البيوت وتثل الأسر ، ترجع
في مجموعها الى كلمات يدسها فاسق لا يرعى واجبا ولا انسانية،
فتنتج له تيجتها المطلوبة من الدس والتفريق ، ولسنا نذهب
مذهب الغلو في هذا الذى قوله ، اذ أنه حقيقة واقعة يدركها كل
انسان ويعرفها كل عاقل متمرس بشئون الحياة والمجتمعات العامة
والخاصة ، ولقد درج بعض من لا خلاق لهم ممن لا يعرفون
وازعا من دين أو مروءة ، الى اتخاذ هذه الخطة الحمقاء ، قاعدة
خلقية يتخبطون في بيدها دياجرها ، ويسيتون الى الانسانية أكبر
اساءة بما يفعلون وهم لا يشعرون ، بل يشعرون ويتلذذوا
بارتكاب الجريمة استجابة لشره النفس المتعطشة الى الدم الآس
وإذا شئت أن تعرف قيمة هذا المجرم الذى يتخذ من دماء
الناس تجارة يثرى منها ، أو لهوا يتسلى به ، فتعلم أن قيمته هي
الفسوق والعياذ بالله فقد وصفه الله به كما ورد في الآية الحكيمة
التي ثبت تفسيرها فيما يلى :

قال المفسرون :

ان الله تعالى يأمر بالتشبيث في خبر الفاسق ليحاط له لتلايحكم
بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبا أو مخطئا فيكون الحاكم بقوله

قد اقتضى وراءه وقد نهى الله تعالى عن اتباع سبيل المفسدين ،
ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول أية رواية مجهول
الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر .

ولهذه الآية قصة يرد إليها سبب نزولها ، فقد قالوا روايات
كثيرة في موضوعها وأحسنها ما رواه الامام أحمد في مسنده
من رواية ملك بنى المصطلق وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار
والد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين .

قال الامام أحمد :

حدثنا محمد بن سابق عن عيسى بن دينار حدثني أبي أنه سمع
الحارث بن ضرار الخزاعي يقول : قدمت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم فدعاني الى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ،
ودعاني الى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله ارجع اليهم
فادعوهم الى الاسلام وايتاء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته
وترسل الى يارسول الله ابان كذا وكذا ليأتيك بها جمعت فلما
جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث اليه احتبس عليه الرسول
ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى
ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان وقت لي وقتا يرسل الى رسوله ليقبض ما كان
عندي من الزكاة وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف
ولا أرى حبس رسوله الا من سخطه فانطلقوا بنا نأتي اليه ، وبعث

رسول الله الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق (أى خاف) فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان الحارث قد منعنى الزكاة وأرادقتلى، فغضب رسول الله وبعث الى الحارث . واقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم الى من بعثتم . قالوا اليك ، قال ولم قالوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم انك منعت الزكاة وأردت قتله . قال رضى الله عنه لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيت بهتة ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله قال (منعت الزكاة وأردت قتل رسولى) . قال لا والذي بعثك بالحق ما رأيت بهتة ولا أتانى وما أقبلت الا حين احتبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت أن تكون سخطة من الله ورسوله قال فنزلت الآية « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ » الى آخره .

وقد وردت روايات كثيرة فى هذه القصة ، وهى قصة بنى المصطلق ، ولكنها كلها فى مجموعها لا تخرج عن المعنى الذى أشرنا اليه ، وختمت أكثرها بأن الرسول صلى الله عليه وسلم غضب من ذلك النبأ وكاد يهجم بغزو بنى المصطلق لما بلغه عنهم من منع الزكاة ومحاولة قتل رسوله فنزلت الآية المتقدمة .

وانما آوردنا تفسير الآية بالنص ، والقصة التي كانت سبب نزولها لتزيد في توضيح المعنى الذي ترمى اليه تلك الحكمة القرآنية السامية في ضرورة تبين الأخبار قبل تصديقها ، لما يترتب عليها من خطورة في حياة المجتمع وفي حياة الأفراد كما أشرنا اليه في أوّل الكلام ، وحسبنا أن نتوه من ناحية أخرى بالمعنى الأدبي الدقيق الذي تشتمل عليه هذه الآية فوق المعنى الاجتماعي السامي الذي أشرنا اليه • وقديما قيل في الأمثال العسامة ، وما آفة الأنبياء الا رواياتها •

فليتأمل في القرآن من يريد التأمل ، وليتدبره من يتدبر وفوق كل ذي علم عليم •

الاستقامة من أسباب السعادة

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا
لنفثهم فيه » .

اختلفت أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية ، فقال بعضهم:
وأن لو استقام القاسطون على طريقة الاسلام وعدلوا اليها
واستمروا عليها « لأسقيناهم ماء غدقا » أى كثيرا والمراد بذلك
سعة الرزق كقوله تعالى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا
لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وعلى هذا يكون معنى
« لنفثهم فيه » أى لنختبر من يستمر على الهداية ومن يرتد
الى الغواية . وقال بعض المفسرين « وان لو استقاموا على
الطريقة » أى طريقة الضلالة .

ومواء كان هذا أو ذاك ، فالشيء الذى لا شك فيه أن
الاستقامة باب من أبواب السعادة وسعة الرزق وأنها الطريق

الموصل الى راحة الضمير وهدى الانسان ، وقد أمرنا الله بها
في قوله تعالى « فاستقم كما أمرت » والاستقامة على الطريقة
المثلى هى المعنية فى كلام الله ومعنى كما أمرت ، أى كما نزل
عليك فى القرآن من التعليمات بالالتزام بأوامر الله تعالى والالتقاء
بنواحيه . ولا شك أن اتباع الأوامر الالهية واجتناب محارم الله،
هو معنى الاستقامة المنشودة التى تؤدى بالانسان الى طريق
البيعة وسعة الرزق والى كل خير وفلاح .

الباب الثالث في الشؤون الصحية:

- ١ — نظام الحجر الصحي في القرآن •
- ٢ — اعتزال النساء في الحيض
- ٣ — النظافة في الاسلام
- ٤ — نظام فطام الطفل

نظام الحجر الصحي في القرآن

أحدث ما ابتكرته أدمغة المفكرين ، في العصور المتأخرة وفي أرقى الأمم ، في حالات الأوبئة العامة ، التي تجتاح البلاد والعياذ بالله ، هو الحجر الصحي ، أو العزل ، أي عزل المريض أو المرضى في مكانهم ، فلا يدخل اليهم أحد ، ولا يخرج من عندهم أحد ، وذلك تحديد للمرض ومنع من انتشاره وتسرب أوبائه .

(١) وقد يجهل بعض الناس ان هذا العزل بمعناه المتعارف عليه اليوم ، انما هو مأخوذ من القرآن أخذا صريحا لاشية فيه ولا موارد ، وقد يظن بعض الناس ، أن هذا النظام من مبتكرات العصر الحاضر ومن تفكير أهله ورجاله ، وهم مخطئون في هذا الظن ومعذرون بعدم وقوفهم على الحقائق التي اشتملت عليها أسرار القرآن الكريم .

وفحن لا تنعصب للقرآن لمجرد التعصب ، حين نرد اليه كل شيء ، ونهتدي بهداه في كل شيء ، فانما نقول ما نقول بأدلة هي آيات الله البيّنات بحيث لا ندع سبيلا للمواربة أو المكابرة .

«١» لم نجد للمؤمنين رأيا في هذا الموضوع ، ولكن الفرغ من التيسار ان العزل الصحي هو رأي ناصح وهو من الآراء السديدة القديمة التي لم تكن وليدة هذا العصر ، اما مسألة آيات العموى فقد تكلم منها من المتكلمين الاعلام الشيخان ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من الحفاظ وقالوا انها تقع بالن الله ويتناولون حديث « لا عموى » بأنه نفي لا كان يعتقد العرب في الجاهلية من نالين العموى بطبعا .

اما فرغنا من آيات هذا الفصل ، فهو ايضا سبق القرآن الكريم الى بيان فائدة العزل الصحي التي ادعى جهابذة هذا العصر انها من وضع الهانوم وهي في الحقيقة نعمة من نعم الاسلام .

يقول القرآن الكريم :

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

صدق الله العظيم ، إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

فلنرجع إلى أقوال المفسرين في هذا الموضوع .

اختلف المفسرون في تحديد عدد هؤلاء القوم فقال ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، أو ثمانية آلاف وعن وهب بن منبه وأبي مالك أنهم بضعة وثلاثون ألفا وقال البعض أنهم من قرية تسمى ذاوردان من واسط ، وقيل أنهم من أهل اذرعات ، وأن بلدهم أصيبت بالطاعون ففروا منها وقالوا فخرج إلى أرض ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع من الطريق قال الله لهم موتوا فماتوا ، فمر عليهم بعد حقبة من الزمن نبي من الانبياء فدعا ربه بالحياة لهم فأحياهم .

هذا هو التفسير الذي فسر به تلك الآية جماع المفسرين من السلف ، ثم جاء الحديث النبوي الصحيح الذي عمل به عمر بن الخطاب كما سنرويّه فيما بعد ، يقول عن الوباء : « إذا كان بأرض وأبتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » وتفضيل ذلك أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب،

أخرج الى الشام حتى اذا كان بجهة تسمى « سزغ » لقيه من أمراء
أجناده أبو عبيدة بن الجراح ، وأصحابه ، فأخبروه بان الوباء
وقع بالشام فذكر الحديث ثم جاءه عبد الرحمن بن عوف وكان
متغيبا لبعض حاجته فأعاد على عمر ذلك الحديث النبوي الكريم
فحمد الله عمر ، ثم انصرف ، وهو حديث ثابت في الصحيحين .

من هذه الآية الكريمة ، ومن هذا الحديث الذي فسرنا ،
ومن هذا التصرف الذي تصرفه عمر بن الخطاب نستشف تقديرا
لنهم معنى الآية والحديث ، ونستخرج أكبر عظة وأكبر عبرة .

ومن هذا يثبت بوضوح وجلاء ، أن نظرية الحجر الصحي ،
أو العزل الصحي ، المعمول بها الآن في أرقى الدول ، وأرقى
الأمم ، والتي تعتبر من نتائج أدمغة رجال العصر الحديث ، إنما
هي حكمة الهية نزلت على نبي هذه الأمة منذ حوالي أربعة عشر
قرنا من الزمان ، وقد عمل بها المسلمون في ذلك العصر أي أنهم
طبقوها عمليا بموجب هذه القصة الصحيحة الثابتة التي رويناها،
وبموجب ذلك الحديث النبوي الصحيح الذي رويناها .

فأي فضل لهذا الكتاب الالهي على العالم ، لا على المسلمين
فحسب ، حيث انتفع بما جاء فيه من عظات وبما اشتمل عليه من
أحكام أكثر الأمم الموجودة على وجه الأرض في القرون الخالية

والحاضرة ، فهل قدر الناس لهذا الكتاب المبين قدره ، وهلا
حفظوه في المهج ، ودسوه في شغاف القلوب واعتزوا به بين
طيات الأرواح وأنزلوه من أنفسهم منزلة السمع والبصر .

لقد صدق أصدق القائلين ، في قوله « ما فرطنا في الكتاب
من شيء » كما صدق أصدق القائلين في قوله « ان الله لذو فضل
على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

اعتزال النساء في الحيض

« ويسألونك عن الحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » الآية .

هذه مسألة من الوجهة الأولى دينية ، فهي محرمة ديناً ، ومن الوجهة الأخرى صحية ، فهي محرمة طبيًا ، وليس لله منفعة تعود عليه إذا اعتزل الرجل نساءه في الحيض أو لم يعتزل ، ولكن الواقع أن عامة الناس فضلا عن خاصتهم عرفوا مضرة الحيض وعرفوا أنه أذى فتجنبوه .

فأما من الوجهة الدينية فالإنسان المسلم الخالص العقيدة يسلم لتحریمها تسليما مطلقا لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بعباده وأعلم بما ينفعهم وبما يضرهم ، وهم على هذه العقيدة سالموا تسليما مطلقا بكل أوامره ونواهيه ، ولكن حدث أن الطب في الاسلام وفي غير الاسلام عالج هذه المعضلة من ناحيته فاكشف أن فيها من الفوائد مالا يحصى ، وأثبت الأطباء أن مخالطة المرأة في الحيض — أعنى مباشرتها — تؤدي بالرجل الى الموت المحقق ، بما تسببه له من أمراض وبيئة وبيئة ، أمراض مؤلمة

معدبة ، وليس هذا الرأي مما يعوزه الدليل فهو رأى الطب
والأطباء فى كل مكان وفى كل أمة ، وهو شئ شائع مسلم به
من الجميع . وما على الذين يجادلون فيه الا البحث والاستقصاء

بقى أن تنظر الى الموضوع من ناحيته الدينية ، لنرى الى أى
حد من الشفقة والرحمة ، يسوقنا الدين ويحذب علينا .

فالموضوع كما قلنا ، لا يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى وهو
لا يتعلق بالدين الا من ناحية كونه أمر الهى تجب له الطاعة
والعمل .

أما من ناحيته الأخرى ، فهو موضوع انساني جليل ، فيه
وقاية كبرى لحياة الناس وأجسامهم من الأوجاع والآلام
والأمراض فاذا تأملنا ذلك جد التأمل ، أمكننا أن تتأمل صورة
مصغرة لمثال من رحمة الله بعباده ، وعطفه عليهم بما يرشدهم اليه
فى محكم كتابه العزيز من وسائل سعادتهم وهنائهم ، وما يدفع
عنهم المكروه والشقاء ، ويجعلهم يعيشون فى حياتهم سالمين
معافين ، أو على الأقل متجنبين الأسباب التى تبث على شقاء
الحياة وتكدير صفو هنائها بالأمراض والعلل .

والواقع أن الكتاب المحكم ملئ بكثير من الآيات البينات
التي تهدي الانسان الى سواء السبيل ، وتشعره بالحذب عليه
من قبل الذات العلية الالهية ، وفى كل أمر من أوامره ، ونهى من
نواهيه ، حكمة قد تستطيع أذهانتنا أحيانا أن تفقه أوجه النفع

فيها ، وقد تكل أفهامنا في الكثرة الغالية ، وتضل عن فهم معناها
السامى أو مرماها البعيد ، وليس ذلك ذنب الآيات التي لم تفهمها
ولكنه من موجبات قصور الفهم الانسانى ومحدوديته ، وليسمح
لنا القارئ أن نستعير في هذا الباب معنى المتنبي الشاعر المشهور
في قوله :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته
والذنب للعين لا للنجم فى الصغر

النظافة فى الاسلام

الوضوء خمس مرات فى اليوم — الاغتسال كل يوم جمعة
الاجتسال من الجنابة عند كل وطء — تغيير الثياب .

لا نظن أن هناك ديانة من الديانات ، تحتم النظافة على
معتقياها كما يحتمها الاسلام على معتقيه ، بل هو ذلك على
التحقيق . ويكفى فى هذا الباب أن نذكر من غير أدلة ولا براهين
شروط النظافة فى الاسلام ، وهى كما يراها القارىء شروط
أساسية لاسلام المسلم ، لأنه لا يمكن أن يكون مسلم من غير
صلاة ولا عبادة ولا اطاعة أوامر الله ورسوله . فالاسلام يلزم
المسلم أن يؤدى خمس صلوات فى اليوم والليلة ، من الفجر الى
العشاء . وفى هذا الوقت المحدود بطلوع الفجر وختلوص العشاء
يتوضأ الانسان خمس مرات غالبا ، غير ما هو ملزم به الانسان
فى السنة من أن يكون دائم الوضوء بما قد يزيد عدد مرات
الوضوء عن ذلك الرقم . واذا أردت أن تعرف ما هو الوضوء ،
فاعلم انه نصف الاستحمام — ان صح هذا التعبير — لأنه عبارة
عن غسل اليدين والمضمضة والاستنشاق بالمبالغة لغير الصائم

وغسل الوجه وغسل اليدين الى المرفقين ومسح الرأس بالماء
وغسل الاذنين وغسل الرجلين الى الكعبين ، علاوة على ما يتقدم
الوضوء من سنة السواك أو غسل الاسنان جيدا .

تصور أيها القارىء نظافة هذا الدين الذى يلزم صاحبه الزاما
بأن يؤدي هذه العملية التطهيرية خمس مرات فى كل يوم ،
وخبرنى عن أى ديانة تفرض هذا على معتقيها .

وليس هذا فقط . فهناك غسل الجنابة ، وهو الاغتسال كلما
وطأ الرجل زوجته أو احتلم وهذا ما قد يقع فى كل يوم أحيانا
أو مرتين فى الاسبوع أو مرة واحدة على الاقل . فيغتسل الرجل
جميعه ويتطهر من الجنابة التى هذه مواقيتها عادة .

ولا تظن أن الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد تقول :والأعزب
ما شأنه والدين لم يحمله على الاغتسال ، والجواب أمرع اليك
من لمح الطرف فإن الدين لم يفرض فى شىء ما ، فلا تنس سنة
الاجتسال يوم الجمعة فهى ليست خاصة بجنابة ولا بتطهير ، وانما
هى عملية من أعمال النظافة يشترك فيها المتزوج والأعزب ، لأنها
سنة الاغتسال يوم الجمعة وكفى .

فاذا أضفنا ذلك كله مجتمعا الى بعضه ، وهو الوضوء خمس
مرات كل يوم والاجتسال فى كل يوم جمعة كما هى السنة
والاجتسال من الجنابة كلما وقعت المباشرة أدركت ما قيمة النظافة
فى نظر هذا الدين الاسلامى القيم الحنيف .

لقد جاء فى الاثر ما يأتى :

ويستحب لمن جاء الى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه اليها لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل) ولهما عن أبى سعيد رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم) وعن أبى هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده) ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر فالسواك أى غسل الأسنان بالسواك سنة ولا بأس من غسلها بما يشبهه مما يؤدى غرض نظافة الاسنان وتطهير الفم لوقايتها من الأمراض وتنظيفه .

وهناك مسألة أخرى وهى مسألة تغيير الملابس المتسخة فقد يحزن البعض أن الدين اغفلها ولم يقل فيها شيئا . ولكن اليك الحقيقة الصادقة .

فى سنن أبى داود عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر (ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته) وعن عائشة

رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس
يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب الثمار فقال (ما على أحدكم أن
وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعه سوى ثوبى مهنته) والمفهوم أن
المراد بذلك أن يغتسل الانسان فى كل جمعة وأن يغير ما عليه
من ملابس مهنته التى تكون قد اتسخت من طوال أيام الأسبوع
هذا هو حكم الاسلام فى النظافة * وهذا حظها منه فليسمع
ذلك من يريد أن يسمع ، وليعلمه من يريد أن يعلم *

نظام فطام الطفل في تعاليم القرآن

من أسرار الإعجاز القرآني الكريم ، وهو الإعجاز الذي يبدو واضحا لذوى البصر والبصيرة ، تعرضه لمعالجة أدق شؤون الحياة الخاصة للأفراد والأسر ، مما يزيد المؤمن إيمانا بأن هذا الكتاب منزل من لدن عزيز حكيم ، غليم بأسرار خلقه وبصالحهم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن تلك المسائل الدقيقة ، مسألة فطام الطفل الرضيع ، وهي في نظرنا مسألة هامة لأنها تتعلق بجملة أمور منها العناية بصحة الطفل لذاته الانسانية ، ومنها العناية به بصفته عضوا في المجموعة البشرية من حيث المحافظة على نمائها وازدهارها ، ومن وجهات أخرى يضيق النطاق عن شرحها بالتفصيل .

يقول القرآن الكريم « فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

والتأريء البسيط ، لا يفهم لأول وهلة معنى هذه الآية الحكيمة العظيمة ، فلننقل اليه تفسير المفسرين لها ليكون سريع

الاهتداء الى ضالته فقد جاء في تفسير الشيخ ابن كثير لهذه الآية ما يأتي بنصه :

(أى فان اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ، ورأيا فى ذلك مصلحة له وتشاورا فى ذلك واجمعا عليه فلا جناح عليهما فى ذلك ، فيؤخذ منه أن أفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكون ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر ، قاله الثورى وغيره وهذا فيه احتياط للطفل والزام للنظر فى أمره وهو من رحمة الله بعباده حيث حجب على الوالدين فى تربية طفلهما وارشدهما الى ما يصلحهما ويصلحه) •

وجاء فى تفسير البغوى مثل هذا التفسير وقال ان المشاورة هى استخراج الرأى (وتشاور) يعنى مشاورة أهل العلم به حتى يخبروا أن الفطام فى ذلك الوقت لا يضر بالولد •

وقد عينا بنقل نص أقوال المفسرين المتقدمين ، نصا حرفيا ، اثبت بالبرهان القاطع حكمة القرآن الكريم فى هذه المسألة الاجتماعية الصحية الدقيقة ، وتعليقه أمر فطام هذا الطفل الصغير — والفطام بالنسبة له شىء فاصل فى تاريخ حياته ، فقد يؤدى الى السلامة وقد يؤدى الى المرض فالموت — تقول علق القرآن أمر الفصل فى هذه النقطة الحيوية الهامة فى حياة الطفل على التراضى بين الوالدين والتراضى لا يكون الا بعد تفكير وتقدير ، وبعد نظر ، والى المشاورة ، سواء مشاورة الوالدين فيما بينهما ،

أو مشاورة ذوي الرأي والخبرة كما ورد في التفسير • وتنفيذ
ما يستقر عليه الرأي الصائب في هذا الموضوع •

وثمة ناحية دقيقة أخرى ، نحب أن نلمح إليها ، ونحب أن
ندفع بها الذين يقولون أن الاسلام جعل المرأة المسلمة كمية مهملة
لا رأى لها ولا قيمة ، نحب أن ندمغهم بهذا النص الصريح الذي
علق أمر الفصل في مسألة خطيرة هامة على شيئين ، أولهما
التراضى في قوله تعالى « عن تراض منهما » ومفهوم أن التراضى
أو الاتفاق على موضوع معين ، لا يتم الا بعد تفكير واجتهاد ،
والشئ الثانى ، الذى علق عليه أمر الفصل فى هذا الموضوع
الهام هو التشاور ، بين الوالدين أى بين المرأة والرجل ، والتشاور
لا يكون الا بأعمال الرأى واجتهاد الفكر ، فالقرآن الكريم
بصائب حكمته أبى أن يجعل الفصل فى هذه المسألة الخطيرة
الهامة ، من حق واحد دون الآخر من والدى الطفل ، بل توسع
أكثر من ذلك بضرورة المشاورة ، فقد يحتمل أن يكون التراضى
متعلقا بذات شخصى الوالدين دون غيرهما ، ولكن معنى المشاورة
يحتمل ادخال ذوي الرأى والخبرة فى الموضوع الخاص
باستشارتهما حتى يقضيا ويقضى المتشاورون بما هو فى مصلحة
الطفل ، كما يؤخذ ذلك من نص الآية ومن أقوال المفسرين التى
أوردناها •

والقرآن لم يغفل بعد ذلك مسألة أخرى متصلة بهذا الموضوع
فى آية أخرى ، وهى آية كريمة تبيح ارضاع الطفل من المرضعات

إذا تعسر لبن أمه أو أرادت فطامه طلبا للنسل أو لغير ذلك من الأسباب المشروعة وبين ما يجب نحو المرضعات من إعطائهن أجورهن ومعاملتهم بالمعروف وغير ذلك مما هو واجب في عنق الإنسان ومما هو في غير حاجة إلى تعريف أو تنويه .

فليتأمل الإنسان الحصيف ، روعة ما اشتمل عليه القرآن من الحكم النفيسة الثمينة وهو يقضى في مواضع لها خطورتها بالنسبة لحياة المجتمع الإنساني وكيف قطع السبيل على كل فساد يخشى تسربه إلى سياج الحياة الإنسانية .

الباب الرابع في الآداب العامّة

- ١ — آداب الاستئذان قبل دخول البيوت .
- ٢ — آداب الاستئذان في الأسرة .
- ٣ — آداب المجالس العامة .

آداب الاستئذان في دخول البيوت وآداب التحية

قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » •
يقول المفسرون في تفسير هذه الآية ما يأتي :

(هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان • أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده • وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فان اذن له والا انصرف) •

وظاهر الآية واضح الدلالة على المعنى الذي ترمى اليه ، وهو النهي عن الدخول الى البيوت من غير استئذان ، وقد أشبع المفسرون من السلف الصالح هذا التفسير بحثا ، فقالوا ان المراد منه هو وضع آداب دقيقة عالية لنظام الاستئذان فقد ورد في

الأحاديث وأقوال الثقات من الأئمة ان الرجل لا يجوز له أن يدخل بيتا غير بيته الا بعد أن يستأذن أهله في الدخول فان أذن له بدأهم بالسلام قبل كل شيء أي قبل الكلام . ومن آداب الاستئذان كما ورد في الأحاديث انه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا وفي رواية ليلا يتخونهم ، يعنى لا يتهجم حتى على أهل بيته لئلا يلقاهم على حالة يكره أن يراهم فيها أو يكرهون أن يكونوا عليها ، وكذلك وجب الاستئذان في الدخول على الامهات والاخوات لئلا يكن في عورة ساعة الدخول) .

ولقد قيد الله عباده بهذه الآداب الأخلاقية لأن في اتباعها الوصول الى السعادة التامة وتجنب كل سبيل شائك من سبيل المضرات الاجتماعية المؤذية التي قد تؤذن والعياذ بالله بالدمار وخراب البيوت وتقويض الاسر والعائلات ، فالمعروف عقلا أن الرجل في خلوته والمرأة في خلوتها قد يجنحان الى ما تقضيه هذه الخلوة من الاستراحة المطلقة فاذا بوغت أحدهما وهو على هذه الحالة بغريب متهجم قد تقع من الحوادث ما لاتحمد عقباها علاوة على ما في ذلك من المنافاة للادب والأخلاق .

فالقرآن الكريم قد حل هذه المعضلة حلا عادلا كريما بما أمر به من الاستئذان ، حيث دفع به مضرة وحقق منفعة : فليتدبر المفكرون هذه الآراء الحكيمة السديدة ، نفعا الله بتفهمها والعمل بها .

آداب الاستئذان فى الاسرة

مثال من الأدب الرفيع

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك بين الله لكم آياته والله عليم حكيم » .

اشتملت هذه الآية على معان رفيعة فى الأدب الاجتماعى والأخلاق العالية ، لم تصل اليه أرقى الأدمغة المفكرة فى هذه العصور ، ولا عجب فى ذلك فهذا كلام الخالق فأنى يصل اليه كلام المخلوق ، والحكم التى تضمنها حكم موحى بها من لدن عليم خبير ، لا من تفكير أشخاص أو عمل مخلوقين .

لقد أوحى التفكير الى بعض الذين زعموا أن عقولهم بلغت أقصى مراحل النضوج والذكاء ، أن يصنعوا شيئاً من مثل هذا النظام الأدبى فى مجتمعاتهم ، ولكنهم اخفقوا كل الاخفاق فى

الوصول من ورائه الى نتيجة حكيمة كهذه التي أشار بها القرآن، ولو اختصروا على أنفسهم السبيل ، وعملوا بمعنى الآية لكفوا أنفسهم مؤونة الجهد والاجتهاد في غير طائل فكثير من الناس يضعون لأنفسهم في أعمالهم ومكاتبهم ، أو في بيوتهم ومساكنهم أنظمة للاستئذان ، وذلك جميل في ذاته إذ أنه يحمل معنى من معاني الأدب والأخلاق ، ولكن عدم التقيد في حالة كهذه بنظام اجتماعي دقيق كالذي أشار اليه القرآن لا يفضي الى النتيجة المطلوبة المنشودة .

يقول المفسرون في صدد هذه الآية الحكيمة ما يأتي :

« هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، فأمر الله عباده أن يستأذنهم خدامهم مما ملكت أيامهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال ، (الأولى) من قبل صلاة العداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نياما في فراشهم (والثانية) حين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، أي في وقت القيلولة لأن الانسان في تلك الحالة قد يضع ثيابه مع أهله (والثالثة) ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت النوم الطبيعي فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الحالات الخاصة ، ولهذا قال « ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » أي اذا دخلوا في غير هذه الأحوال لأنه قد أذن لهم في الدخول ولأنهم طوافون عليكم في الخدمة وغير ذلك ،

ويغتفر في الطوافين مالا يغتفر في غيرهم ولهذا روى الامام مالك
وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
في الهرة « انها ليست بنجسة انها من الطوافين عليكم
والطوافات » .

وظاهر الآية ، وظاهر التفسير واضح الدلالة على أن المقصود
منها هو مراعاة الآداب الشخصية في منزل الرجل وبين أسرته ،
أى فيما يخصه بشخصه وفيما يخصه فى أسرته حيث أمر الله
سبحانه وتعالى بالاستئذان فى الحالات التى هى مظنة العورات
وهى حالات واقعة تمام الوقوع فمن ذا الذى ينكر أن الانسان
حين يكون فى فراشه قبل صلاة الفجر ، وحين يخلع ثيابه فى
الظهيرة للقبولة ، وحين يستعد للنوم بعد العشاء ، انما يكون
عورة من العورات ، وموضع ستر واستئذان .

لقد جاءت هذه الآية الكريمة بأرفع مثل لنظام الاستئذان مع
ايراد ملاحظة دقيقة وهى أن هذا الاذن جعل على الذين لم يبلغوا
الحلم ممن هم فى معية الرجل من أسرته وعلى خدومه الذين هم
طوافون عليه ، أما الأجانب عنه ، فلمهم حكم آخر غير هذا الحكم
أى أن هذا الاستئذان خاص بخدومه ومن هم فى معولته ومن هم
معه فى بيته .

آداب المجالس العامة

الامر بالتفصح بين الجلوس

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

قال المفسرون في سبب نزول هذه الآية الحكيمه أنها نزلت في يوم جمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ في الصفة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والانصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجلس فقاموا حياء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد عليهم ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم ، فشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من المهاجرين والانصار من غير أهل بدر،

ثم يا فلان واثت يا فلان فلم يزل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والانصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهة في وجوههم فقال (رحم الله رجلا يفسح لأخيه) فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لأخوانهم .

قول : وهذا الذي ذكره القرآن الكريم وشرع فيه إنما هو سر من أسرار المجتمعات العامة وما يقع فيها ، وكلنا نعلم أن كثيرا ما تكون جماعات منا في حضرة رجل عظيم أو شخصية فذة ، فيدخل عليها جماعات أخرى فتضن الأولى بمكانها وتستأثر بما كانت فيه من النبطة بقرب ذلك العظيم والدنو من مجلسه وتمتلك الاثانية نفوسهم فيودون ان لو لم يكن أحد من الناس دخل عليهم فعكر على ذلك الاجتماع ، صفوا ما كانوا يجيبون الاسترسال فيه من هناء واستمتاع .

وهذه عادة من عادات النفوس الكامنة في غريزتها ، وهي مشاهدة ملحوظة ، والقرآن الكريم حين يقضى فيها بأدب حكيم كهذا ، إنما يقضى في مشكلة من المشاكل الاجتماعية التي تخلف في نفوس الناس البغضاء والتنافس ، كما أن القصة التي ذكرناها في سبب نزول الآية ، تمثل ذلك الواقع أبلغ تمثيل ، وتمثل

فضل هذا الرأي الذي سرعان ما أزال من نفوس القوم ما اضطروا
النبي الكريم الى اتخاذ من اجراء سريع يستدفع به حرج
الموقف بين الجالسين عنده والقادمين عليهم *

فلو اتبع الناس هذا السنن القويم ، والرأي الحكيم ، لفضوا
من تلقاء أنفسهم على عادة من أسوأ العادات ولأراحوا ضمائرهم
من عناء التشاحن والبغضاء في أمور بين القرآن لهم سبيل الراحة
فيها . فليفقه ذلك من يريد أن يفقه ومن فتح الله على سماعه
وبصره *

اليَابُ الْخَامِسُ فِي الشُّعْرِ الْخَيْرِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ

- ١ — أنواع البر وشعب الاحسان •
- ٢ — بر الوالدين وطاعتهما •
- ٣ — الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير •

انواع البر وتنظيم الاحسان

القرآن الكريم يدلنا على شعب البر بانواعه
« وآتى المال على حبه ، ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ،
وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » .

اجتهد المفكرون فى كل أمة ، فى تنظيم سبل الاحسان ،
وتحديد شعب البر ، وقد تضارب اجتهادهم فى هذا الصدد
وتفاوتت سبلهم ، بحيث أصاب بعضهم أهداف هذا الغرض الانسانى
الجليل ، وأخطأه كثيرون ، بل أخطأته الكثرة الساحقة منهم ، وقد
وردت فى القرآن الكريم آيات لا تحصى فى هذا الموضوع
العظيم الخطير علاوة على ما فرضه الله تعالى من حق للفقراء على
الأغنياء حقا منظما صريحا بإتاء الزكاة .

وهذه الآية التى تنظم الاحسان ، وتبين شعب البر ، هى آية
واضحة بعيدة المغزى ، تقول :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن
البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى

المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون
بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ،
اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » •

هذا هو نص الآية الكريمة ، أثبتناه ليتصور منه القارىء
الكريم طائفة كبيرة من وجوه البر وشعب الاحسان ومنهاج
مكارم الأخلاق والاستعانة على أمور الدنيا والحض على اتباع
السبل المؤدية لسعادة الانسان •

وابرز ما يتجلى فى هذا النص الحكيم ، هو الترغيب فى
مزيد المعونة من قبل المقتدرين على المحتاجين ، ولكن بأيمهم تبدأ
ان وجوه البر كغيرها من الشؤون الأخرى ، متعددة المسالك ،
متشعبة الطرق ولا شك أن التوفيق الى تنظيمها ، توفيق الى
اصابة الهدف المقصود الذى يصيب الفائدة المرجوة وتحقيق
الغاية المتوخاة ، والعكس بالعكس •

وقد بينت هذه الآية سبل تنظيم الاحسان بيانا واضحا شافيا
قيدأت بذوى القربى ، وهذا رأى لا يحتاج صوابه الى تدليل ،
والاقوال والأمثلة فى ذلك كثيرة لا تحصى ، ثم اليتامى وهم أحق
الناس بالرعاية والاحسان بعد ذوى القربى ، ثم المساكين • وهنا
يجدر بنا أن نقف لحظة امام تفسير هذه الكلمة لئلا نغرض
الشريف المقصود منها ، فقد اختلفت أقوال المفسرين فيها ، فقال

بعضهم أن المساكين هم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم
وسكنابهم وكسوتهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وختهم . وفي
الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« ليس المسكين بهذا الطواف ، الذي ترده الثمرة والتمر تاراً
واللقمة واللقتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنا يغنيه ولا
يفطن له فيتصدق عليه » .

ذلك بأن الناس ، تواضعوا في اصطلاحهم ، على اعتبار
المسكين كل فقير سائل يحتاج الى الصدقة والاحسان ، ونسوا
وراءهم من هو أجدر بمعونة المسلمين وحسنة المحسنين من أولئك
الذين وصفهم القرآن الكريم أبلغ وصف وأسماء ، في قوله
تعالى « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا
يسألون الناس الحافا » وهم الذين وصفهم هذا الحديث
النبوي الكريم بأنهم « الذي لا يجد غنيا يغنيه ، ولا يفطن اليه .
فيتصدق عليه » .

فالقرآن الكريم ، أوضح في أجلى بيان . درجات الاحسان
والمستحقين له ، بصورة تكفل السعادة لجميع طبقات البشر .
وتكفل للمحسن اصابة الهدف الذي قصد اليه بتوصيل احسانه
الى مستحقه على حسب درجة عوزهم ، وترتيب حاجتهم الى
الاحسان .

أما الصنف العادى من المساكين والشحاذين المعروفين فى كل
جهة وكل مكان ، فأولئك هم الذين عنتم الآية الكريمة بالسائلين

فقد قال المفسرون ان السائلين هم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكاة والصدقات . « وابن السبيل » جاء في التفسير أن المقصود به المسافر المجتاز الذي فرغت نفقته فيعطى ما يوصله الى بلده والذي يريد سفرا في طاعة فيعطى ما يوصله الى بلده ، والمعنى في جملة يدل على فريق من الناس يكون منقطعا عن أهله أو بلده كالغريب وما الى ذلك وهذه شفقة من الله على عباده ورحمة به من المستضعفين منهم ، الذين يكونون في حاجة الى الاحسان أيا كان وفي أية صورة من صوره .

(وفي الرقاب) قال المفسرون أنهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم ، وقال بعضهم أنه يدخل في هذا المعنى عتق النسمة وفك الرقبة وفداء الاسارى وما هو من هذا القبيل .

والخلاصة أن هذه الآية الجامعة من القرآن ، اشتملت كما قلنا على أبلغ مثال في تنظيم الاحسان وتوجيه شعب البر الى ما هو جدير منها بالاقبال والاحسان ، كما اشتملت على أبلغ مثل في مكارم الأخلاق حيث جاء فيها « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس وقد مدح الله سبحانه وتعالى المتصفين بهذه الصفات فقال جل شأنه « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

بر الوالدين

طلعت على أخلاق هذا العصر ، موجة قوية من الفجور جعلت
بعض الأبناء ينظرون الى آباءهم وأمهاتهم نظرات الاحتقار
والازدراء ، بل تعدى الأمر ذلك الحد الى حد أبعد منه امعانا في
سوء الخلق والعياذ بالله ، بحيث يقع التعدي من كثير من الأبناء
العاقين على والديهم ، وهذا التعدي يكون أحيانا بالسباب البذيء
وأحيانا أخرى بالضرب ، والضرب المؤلم الموجه ، وأحيانا ثالثة
يكون بالاعتداء الدموي كالقتل ومحاولته وما أشبه ذلك ، نعوذ
بالله منه كل العياذ .

لا تكاد الانسانية في أشجع مظاهر همجيتها ، تتصور أن
مولودا يضرب والديه ، ولا تعتقد أن الانسانية في أشجع مظاهر
همجيتها ، تبيح لمولود ، كائنا ما كان ، ومهما أدت الأسباب ،
أن يعتدي على والديه اللذين ولداه بالشتيم والضرب ، فما بالك
بالقتل واسالة الدماء .

فاستمع رعاك الله الى ما يقوله القرآن الكريم ، في هذا
المعنى من الآيات الصريحة البينة ، وقبل أن نورد شيئا منها نذكر

اننا لا يمكننا أن نحصى جميع الآيات التي وردت في الحضر على
بر الوالدين والنهي عن الاساءة اليها بأبسط صور الاساءة •

قال الله تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن
عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما
وقل لهما قولا كريما ، وانخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل
رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » •

ونظن أن القارئ الحصيف يدرك قبل كل شيء كون أن الله
تعالى قرن بر الوالدين بافراده بالعبادة ، هذه نقطة هامة خطيرة
في تبين أهمية بر الوالدين وقيمته المعنوية كقوله تعالى في آية
أخرى « ان اشكر لى ولوالديك الى المصير » ونتقل بالقارئ
بعد هذه النقطة الى ما يليها وهو الأمر بالاحسان الى الوالدين
بحيث ترتبت على ذلك شرعية الاحسان اليهما ووجوبه اما يبلغن
عندك الكبر ، وبعد ذلك يأتي الأمر بأن لا تقل لهما أف ولا تنهرهما
وقل لهما قولا كريما ، ونظن أن التأقف هو أبسط معانى الاساءة
وقد نهى الانسان عن أن يوجه الى والديه أبسط معانى الاساءة
التي هي التأقف وأمر أن يقول لهما قولا كريما أى لينا طيبا
حسنا بتأدب وتوقير عظيم كما ورد في التفسير •

يظن بعض الأبناء العاقين أن الوالدين حين يكبران وتتقدم بهما السن يجب أن يصدعا بأمر مولودهما العاقل الرزين ويجب أن يكونا مخرفين في نظره وأن يكون العقل وسلامة التفكير له وحده ، وفي هذا الكثير من الجهل والغباء وسوء الإدراك وقد حل القرآن الكريم هذه المشكلة العائلية الاجتماعية بهذا الحل الشريف الذي لو اتبعه الناس في مفداهم ومراحهم لاستراحوا ولكن هيهات فما يتبصر الا أولو الألباب .

الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير

قال الله في كتابه الكريم :

« وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » •

تقدم الكلام على وجوب الصدقات والزكاة وسائر شعب البر والاحسان ، ولكن القرآن الكريم أفاض في التبيه الى هذا الموضوع افاضة عميقة تدل على قيمته للمجتمع الانساني ومقدار فائدته منها •

وقال المفسرون ان الضمير يرجع في حبه الى الله تعالى أى في حب الله سبحانه • لدلالة السياق عليه وقالوا ان الضمير عائد الى الطعام أى ويطعمون الطعام فى حال محبتهم له وشهوتهم اليه ، كقوله تعالى « وآتى المال على حبه » وقوله « ان تناولوا البر حتى تنفقوا » •

وروى البيهقى عن نافع ، قال : مرض ابن عمر فاشتبهى عنبا أول ما جاء العنب فأرسلت امرأته فاشتريت عنقودا بدرهم فأتبع الرسول سائل فلما دخل به قال السائل : السائل • فقال ابن عمر

اعطوه اياه . فأرسلت فاشترت بدرهم آخر فأتبع الرسول السائل فلما دخل به قال : السائل فقال اعطوه اياه فاعطوه اياه . فأرسلت زوجته الى السائل فقالت : ان عدت لاتصيب منه خيرا أبدا ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به .

قال « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » فاما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانها ، واما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك ، أنه الأسير من أهل القبلة . وقال ابن عباس كان اسراؤهم يومئذ مشركين ويشهد لهذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الاسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء وقال عكرمة هم العبيد واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك وهكذا قال سعيد ابن جبير وعطاء والحسن وقتادة . وقد وصى النبي صلى الله عليه وسلم بالاحسان الى الارقاء في غير ما حديث حتى أنه آخر ما أوصى به أن جعل يقول « الصلاة وما ملكت ايمانكم » .

وخلاصة الآية وما ورد من الأحاديث النبوية في معناها ، تبين فضل الاحسان الى المسكين واليتيم والأسير وقد تقدم الكلام في شعب البر على من يجب عليهم الاحسان من المساكين والسائلين وأبناء السبيل والايتام ولكن هذه الآية زاد فيها الاحسان الى الأسير ، وهو صنف من الناس ، تعوزه الرحمة والشفقة والاحسان لأنه في ذل الأسر ومخنته ، ومسكنة الذل وفاقتة ، فانظر الى القرآن الكريم كيف حافظ على كل ما يشتمل على سعادة الانسان ورفاهية الانسانية في كل ناحية من النواحي

الباب السادس في فنون الحرب والقتال

- ١ — منع الاعتداء في القتال •
- ٢ — مبادئ الاسلام في السلم والحرب •
- ٣ — درس في السياسة من القرآن •

منع الاعتداء في القتال

أوامر الهية صريحة من نص القرآن

تفنن علماء الغرب ، في ايجاد شتى وسائل السعادة لبني الانسان وهذه مخترعاتهم العلمية المفيدة تنطق بذلك وهي ليست مجهولة بحاجة الى تعريف ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ما اخترع من أنواع المواصلات ، في البر والبحر والجو ، ومن وسائل الاتصال البرق اللاسلكي والهوائي الذي يطوى المسافات الشاسعة في سرعة الضوء أو بتعبير آخر ، في لمح البصر .

أجل تفنن علماء الانسانية في كل هذه الخيرات وأكثر منها ، لصالح الانسانية ولخدمتها ولسعادتها فهم حقيقيون بكل تقدير ، جديرون بكل ثناء .

ولكن مهلا رويدا .

أجل مهلا رويدا فانه شكر ممزوج بالألم وثناء تغمره الحسرة والأين .

أعزني سمعك أيها القاريء عافاك الله وكتب لك السلامة ، ولا تغفل عما سألقيه عليك ، ولانتقل بك الى ميادين القتال

الأوربية فأشهدك فيها ، ما تصطك له أسنانك من الرعب ، وترتعد له فرائصك من الاشفاق ، أشهدك الانسانية البريئة كيف تصرع ، أشهدك الأمومة كيف تفجع ، ولا عليك بعد ذلك من دعوى العلم والعلماء من العمل لخير الانسانية وسعادتها : أشهدك ما ينسبك برفاهية المدنية ، ويطل أمامك حجة دعواها ، بحيث أحملك على التصديق بأن هذه المخترعات وقد كثرت عن أنيابها انما تجلت عن أصل طبيعتها ، وطبيعة العمل الذى اخترعت من أجله ، وهو مجرد الدمار والخراب ، والايذاء والتكيل . ولك أن تتصور قسوة العواطف التى تلقى بالمهلكات الجهنمية والعياذ بالله ، على أطفال رضع ، أو شيوخ هجع ، على زوجات وأمهات وبنين وبنات ، واخوان وآباء ، وأهل وأصدقاء ، فجأة وبغته ، بغير ذنب البتة سوى ورود هذه الضحايا على طريق أولئك الظالمين ، عفوا ، كما ترد أسماء الأعلام فى طريق القوافى . فاذا سألت ما هذا . قيل تلك هى المدنية فى أنبل معانيها ، تريد تمدين هذا الشعب ، أو ترقية تلك الأمة ، ورحمة الله على المنطق رحمة واسعة حيث دفن فى رمسه ، وقبر فى جدته .

هذا الموجز المختصر ، هو الذى يقع بين أسماعنا وأبصارنا بين كل يوم وآخر ، خصوصا فى الأوقات التى نشطت فيها الحروب بين الأمم القوية والضعيفة ، وما تواردت به مختلف الأبناء الرسمية عن أعداد الضحايا من الرعايا الأبرياء الآمنين .

لقد أسمعتك أيها القارىء ، دعوى المدينة فى هذا الموقف بل
أشهدتك حقيقتها الملموسة بما لا سبيل معه الى النكران ، وما
لا حاجة به الى الدليل ، فتفضل غير مأمور وعد معى لأسمعك
رأى الاسلام فى هذه النقطة الحساسة المتوقدة ، وأشهدك من
القرآن الكريم أبلغ مثل وأعلاه ، ولك أن تفاضل بعد ذلك بين
المدينة الدامية ، والجهالة الواعدة ، وتخير لنفسك أنبل الخطتين ،
وأقوم السيلين •

ويقول القرآن الكريم :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله
لا يحب المعتدين » •

وليس من غرضنا أن نفسر الأمر بالقتال فى أول الآية ، وإنما
الذى عنانا فى موضوعنا ، هو الشرط الثانى منها ، وقوله تعالى
صراحة وبصيغة النهى الواضح « ولا تعتدوا ان الله لا يحب
المعتدين » وان كان هذا لا يمنع من أن نذكر على سبيل الفائدة ،
أن أقوال المفسرين اختلفت فى شرح هذه الآية حيث قال بعضهم
بأنها أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القتال
بالمدينة فلما نزلت كان الرسول يقاتل من قاتله ويكف عن كف
عنه ، حتى نزلت سورة براءة فنسخت هذه الآية بآية أخرى هى
« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقال بعض المفسرين ان
المراد فى قوله « الذين يقاتلونكم » انما هو تهيج وانغراء بالاعداء
وقد تواردت الآيات الكثيرة فى هذا المعنى •

وارجع الى ما نحن بصدده فى تفسير قوله تعالى « ولا تعتدوا
ان الله لا يحب المعتدين » فنقول أن المعنى ظاهر أو ضوح من
النهى عن الاعتداء فى أول الآية ثم زيادة التبغيض فيه بقوله الله
لا يحب المعتدين ، وقد زادت الأحاديث النبوية فى تفسير هذا
المعنى وتكريره الاعتداء فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله :

(اغزوا فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا
ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع)
رواه الامام أحمد ومن هذه المناهى ما ذكره الحسن البصرى من
المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى
لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق
الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة .

يستخلص من نص الآية الكريمة ، وهو نص واضح كما
ذكرنا ، ويستخلص من نص الأحاديث النبوية الواردة فى هذا
المعنى ، ومن أقوال الشراح والمفسرين ، يستخلص من ذلك كله
الاجماع على استنكار الاعتداء فى الحروب وليس بعد كلام الله
تعالى مجال للقول ولا محل للاستشهاد .

نسوق هذا الحديث الى أنصار الانسانية الذين وقفوا
أدمعتهم على اسعادها ، وحبسوا تفكيرهم على هناها ، ولننظر
بعد ذلك الى أى منقلب ينقلبون . .

مبادئ الإسلام في السلم والحرب

في مساجلة بين كاتبين : مسيحي ومسلم

وفيما نحن بسبيل تأليف هذا الكتاب ، عثرنا على المقالين الآتين أحدهما كتبه كاتب مسيحي في مجلة الرسالة الغراء ، والآخر كتبه أديب مسلم في عدد آخر من تلك المجلة ، يساجل به زميله الأول ، وكلاهما يرمى الى فكرة متحدة ، ونظرية مشتركة هي تمجيد آداب الاسلام وتعاليمه والاشارة الى انه دين سلم لا دين حرب ، وانه غزا العالم بتعاليمه وآدابه قبل أن يغزوهم بسيفه ، وانه لم ينتص الحسام الا مضطرا بعد أن أعجز في السلم وأبلى في المناظرة .

وقد رأينا ان موضوع المقالين له مساس أي مساس بموضوع كتابنا لاتحاد الغاية واشتراك الفكرة فلم نر بدا من اشراك القراء في تلك الثمرة العقلية الموقفة التي تزيدنا تأييدا فيما نحن بصدده من تمجيد كتاب الله الحكيم ودينه القويم .

المقال الاول

« .. أنا لست مسلما ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول في الاسلام الحق . ولقد دفعني الى هذا ما شاع بيننا نحن المسيحيين عن طريق المبشرين وانكشارية الدين المأجورين — من أن الاسلام دين كاذب قام على السيف .

وأصارك أنى كنت على هذا الرأى حتى تبعت الى فضائل الاسلام .

طريق الرسالة الغراء ، ثم عن طريق القرآن الشريف . لذلك آليت على نفسى أن أعوض عن عدم اسلامى بنشر الاسلام بقلمى ولسانى .

خليل جمعة الطوال

« الاسلام دين بربرى قام بقوة السيف »

« فولتير والخصوم »

بهذه الحججة الواهية ينثال على الاسلام خصومه ليشوهوا جماله ، وينالوا من روحه الكبرى ، وينتقصوا من تعاليمه السامية وبهذه الحججة أيضا يتذرع أهل الجهالة والزيغ ، اذ يصمون

صاحب الرسالة العربية بالكذب والشعر والكهانة ، ويدعو
مؤسس ديانة بربرية كاذبة تنافى مبادئها روح الحضارة ،
تعاليمها حائلا دون تقدم المدنية . ولو أنهم خلوا الى أنفسهم ،
ونفضوا عنها غبار التعصب ، ودرسوا تعاليم الاسلام ، وتدبروا
آياته فى هداة من أغراضهم الذاتية ، لانجابت عن بصائرهم
سدف الأرجاف ، ولانجلى عن قلوبهم خبث الصدور وصدا
الباطل .

يزعمون أن الاسلام قام بقوة السيف . . . ويتمسكون بهذا
الزعم على أنه حقيقة واقعة لا غبار عليها . ولكن فاتهم أن القوة
التي أعزت الاسلام فى بدر ، والقادسية واليرموك ، والتي غزا
بها المسلمون — على قلة عددهم وضعف عدتهم وعتادهم —
العالم ، وأمعنوا فى جهاته الأربع بالفتح والاستعمار ، حتم
وسعت امبراطوريتهم ثلثى الكرة الارضية — لم تكن الا قوة
ايمانهم بعقيدتهم الجديدة ، عقيدة التوحيد بالله وعدم الشرك
به ، تلك العقيدة استمرأوا فى سبيلها النكبات ، وتجشموا
الأخطار والمصائب ، فما لانت قناتهم ، ولا خضدت شوكتهم
ولا هانت قوتهم ولئن قام الاسلام ببضعة أسياف وقر من الرجال
لقد قاومه أعداؤه المشركون بألاف الصوارم ، وكتائب الأبطال .
وما انتصاره عليهم الا انتصار الحق على الباطل ، وما هزيمتهم
الا هزيمة القوة المادية أمام قوة الايمان الروحية .

تبارك الله •• رجل يقوم ضد أمة ، فكأنه بقوة إيمانه —وهي
كل ذخيرته — أمة بأسرها • فيغلبها حيناً وتغالبه أحياناً ، ثم
ينصر الله عبده ، ويعز كلمته ، فإذا القوم يسارعون فرادى
وجماعات ليستظلوا تحت راية حقه ، وليسترشدوا بنوره ،
ويبتدوا بهدايته ، وإذا محمد رسول الله ، ورجل الحق ، وعدو
الكفر يقف فيهم خطيباً عند باب البيت ليعلن فيهم مبدأ الأخاء
والحرية والمساواة ، فيقول : لا إله الا الله وحده لا شريك له صدق
وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده •

الا كل مائة أو دم أو مال فهو تحت قدمي هاتين الا سدة
البيت وسقاية الحاج • يا معشر قريش • ان الله قد أذهب عنكم
نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء • الناس من آدم ، وآدم خلق من
تراب • يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم •

تلك هي مبادئ الاسلام السامية التي اهتزت لها أصنام
الوثنية وهياكلها ، بل تلك هي عدة المسلمين التي فتحو بها العالم
والتي لم تغن عنها « يوم بدر جيوشهم اللجة الجرارة وأسلحتهم
الوفيرة المدمرة بمثل هذه المبادئ قام الاسلام يرشد الناس بنور
الهداية وحسن الموعظة ولم يلجأ الى السيف الا دفاعاً عن حوزته ،
واشفاقاً على رسالته ، من أى تصبح مضعة استخفاف يلو كها أهل
الكفر والالحاد مدى العمر • وان شريعة سماوية جديدة قامت
ولم يؤيدها السيف في انتشارها • أهي اليهودية وقد كانت تأمر

برجم كل خارج على الناموس . . أم هي المسيحية وما زالت
محاكم التفتيش بأقبائها المروعة المظلمة يتردد صداها في الآذان
وترتعد من فظائعها الأبدان . ولم نذهب بعيدا في الاستدلال
والتاريخ مفعم يذكر الكثيرين من ضحايا المسيحية — أو قل على
الأصح انكشارية المسيحية — ومجازرها . وحسبك منها مجزرة
القديس (سان برثلمو) التي قتل فيها ٢٥٠٠٠ نفس ومجزرة
شارلمان بقبائل السكسون التي سالت فيها الدماء البريئة أنهارا ،
وما ارتكبه جيوش فيليب الثاني ملك أسبانيا وحامي ذمار
الكاثوليكية في هولندا من الفظائع وضروب التمثيل التي تهتز
لهولها الرواسي ، وتشيب لمنظرها النواصي . وما فعله الامبراطور
فرديناند الثاني وهو من أسرة هسبرج حين حاول أن يستأصل
شأفة البروتستنتية في المانيا ، فأرسلها اليها جيوشه اللجبة ، التي
أخذت تعمل السيف في الرقاب والعباد ، والنهب في البلاد ،
واختل الأمن ، فأبيحت الأعراض ، وأزهقت النفوس البريئة ،
وخرب خمسة أسداس المدن والقرى الالمانية ، وتناقص عدد
السكان فيها ، حتى صار أربعة ملايين بعد أن كان ثمانية عشر
مليوناً .

ولم نذهب بعيدا وفي الأمس تراجع البابا تلك الذكريات
المؤلمة ، فيكي وينتجب لها ، لأن أهل رومية قد أقاموا (ابرونو
الايطالي) الذي أحرقتة محاكم التفتيش بالقار واقطران ، في

حفل رائع من رجال الاكليروس ، تمثالا عظيما فى المكان الذى
أحرق فيه ضحية لتزمت العصر ، وكفارة عن حرية الفكر .

ولم تكن البروتستنتية على حدائة عهدها لتختلف عن
الكاثوليكية بشىء من حيث تفتيش الضمائر ومخبات الصدور ،
واضطهاد أبطال الحرية الفكرية بالسجن حينا وبالحرق أحيانا ،
فتلك النيران المخيفة التى التهمت جثة (سرفيتوس الاسبانى)
ما يزال مشهدها ماثلا أمام عيني كل من وهر فى جدته ، وما تزال
تلك الذكرى تتناش جثته الهامدة ورمته البالية .

لقد اضطهدت المسيحية على اختلاف مذاهبها خلقا كثيرا من
ذوى الحرية الفكرية على حين كان الاسلام على درجة بعيدة من
التسامح ولنا من أبى العلاء المعرى أكبر دليل على ذلك ، فقد
شك هذا الفيلسوف العظيم فى جميع الأديان ، واتهم بالكفر
والالحاد ، ومع كل ذلك فقد عاش آمنا مطمئنا على حياته ، ولم
ينله من الحكومات الاسلامية أدنى أذى مع أنه قد تمادى فى كفره
وشكه لدرجة تكفى للحكم عليه بالقتل والحرق .

ومن الحق هنا أن نسجل أن جميع الديانات حتى الوثنية
منها تأمر بالخير والاحسان وأن المسيحية لم تبج سفك الدماء
واضطهاد الأبرياء ، ولكن ما العمل وقد اضطهدت هذه النفوس
البرية باسمها . وذلك ارضاء للنفوس الدنيئة ، والأطماع
الساقلة .

لقد قام الاسلام يدعو الى التوحيد ، فأعطى أهل الكتاب الحرية التامة فى اقامة شعائرهم الدينية ومعتقداتهم ، ولم يعمد الى السيف فى اخضاع المشركين ورددتهم الى حظيرة الايمان بالله الا اذا أبوا أن يلبوا دعوة الله بالحجة البينة ، والموعظة الحسنة ، واختاروا الحرب •

أفبعد هذا يزعمون أن الاسلام دين كاذب •• ليت شعري ، أية كذبة تماشى العصر ، وتسايير الزمن ، وتعيش مع الدهر — بين الخصوم — أكثر من أربعة عشر قرناً ، وتنطلى تمويهاتها على حوالى ستمائة مليون من الناس ، وتظل عندهم طيلة هذه الأحقاب موضع الاجلال والاكبار ، تهز قلوبهم الرحمة وأكفهم للخير •

ألا ان الاسلام يرىء مما نسب اليه ، فهو دين عربى صادق يدعو الى توحيد الله دون أن يلجأ الى التواء المنطق وغث التأويل • (ولئن فاتنى حظى من النسب ، لن يفوتنى حظى من المعرفة) •

خليل جمعة الطوال

المقال الثاني

مهدة الى الاستاذ خليل جمعة الطوال

ان من الجناية على الحق ، والافتراء على التاريخ ، أن يقول قائل ان الاسلام قد اتشر بالسيف . أى سيف كان يحمله محمد ، وهو الاعزل الذى لا حول له ولا قوة ، الوحيد الذى لا ناصر له ولا معين ، يناله السفهاء بالأذى فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ويأتمر به قومه ليقتلوه فيفر بحياته الى يثرب .

لقد ظل محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاماً يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يكن له من سلاح غير ثقته بالله وايمانه بأنه على حق ، ولقد لاقى هو وأصحابه فى سبيل هذه الدعوة من ضروب الفتنة والاضطهاد مالا يثبت عليه الا الذين عمسرت قلوبهم بالايمان ، واستتيقنت أنفسهم من نصر الله .

كان الرسول يوماً يصلى عند الكعبة ، وبينما هو ساجد اذا بعقبة بن أبى معيط ، يطلا عنقه الشريف حتى كادت عيناه تبرزان

وخنقه بردائه خنقا شديدا ، والناس من حوله شامتون ،
حتى أقبل أبو بكر محتدا وخلص الرسول منه وهو يقول :
أقتلون رجلا أن يقول ربي الله .

ولما خرج الى الطائف يدعو أهلها الى الاسلام ، أغسروا به
سفهاءهم فترصدوا له بالطريق وأخذوا يحصبونه بالحجارة حتى
تخضبت قدماه بالدماء .

ولما أبى عمه أبو طالب أن يسلمه اليهم ليقتلوه تعاهدوا على
مقاطعة أوليائه من بنى هاشم ، ودامت هذه المقاطعة ثلاث سنين
لقى فيها هذا البيت الكريم من العنت والارهاق أعظم البلاء .
وعذب عمار بن ياسر وأهله عذابا شديدا ، فكان الرسول
يمر بهم وهم في العذاب ويقول : صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم
الجنة .

ومن ذلك أن أبا جهل طعن سمية أم عمار بحربة فقتل عليها
فشكا عمار ذلك الى الرسول قائلا : يا رسول الله ، بلغ منا العذاب
كل مبلغ . فقال صلى الله عليه وسلم : (اصبر أبا يقظان ، اللهم
لا تعذب من آل ياسر أحدا بالنار) .

وقد استشهد أفراد هذه الاسرة الكريمة في سبيل الله ، ولم
يبق منهم إلا عمار الذي كان يعذب حتى لا يعي ما يقول .

ومن عذب في سبيل العقيدة بلال بن رباح كان مملوكا
لأمية بن خلف ، فلما اعتنق الاسلام خنق عليه سيده وأمره

بالرجوع الى عبادة الأصنام ، فلم ينصح لأمره لأنه ذاق حلاوة
الايمان ، فأنزل به ألوانا من العذاب : كان يطرحه على الرمضاء ،
ويصهر على صدره دروع الحديد ، ويضع عليه الاحجار الثقيلة
حتى قد ظهره . وهو يهتف دائما : أحد ، أحد ، الى أن ألقاه
أبو بكر فاشتراه من سيده ، وأعتقه لوجه الله .

وكثير غير هؤلاء ممن آمنوا بمحمد في مبدأ بعثته ، كانوا
يلاقون العذاب الهون والبلاء العظيم ، حتى أذن الرسول صلى
الله عليه وسلم لمن ليس له أنصار يحمونه من هذا العدوان أن
يفر بدينه الى الحبشة ، فهاجر اليها جهم غفير . واستأذن أبو بكر
في الهجرة اليها فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم له ، فلما كان
على مسيرة يومين ، لقيه ابن اللغنة سيد قومه فسأله : أين تريد
يا أبا بكر . قال أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد
ربى ، قال : ان مثلك لا ينبغي أن يخرج أو يخرج من أرضه ، ثم
رجع به الى قريش وأدخله في جواره ، على شرط أن يعبد الله .

فابتنى أبو بكر مسجدا بفناء منزله ، وصار يصلى فيه ويتلو
كتاب الله ، فكان نساء قريش وشبانهم يجتمعون حول داره ،
يستمعون لتلاوته ، ويؤخذون ببلاغة القرآن وروعته . ففسزع
القوم وشكوا أبا بكر الى حليفه ، فأغلظ الحليف لأبي بكر في
القول وقال له : اما أن تستعلن بعبادتك ، واما أن تعيد الى ذمتي
فقال أبو بكر : الى أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل

فكيف اجتمع هؤلاء الناس على محمد • أبالسيف وهو
أعزل لا يستطيع أن يعصم نفسه • ومتى كان السيف وسيلة
لتكوين العقائد فى النفوس ؟ •

ولماذا باعوه أرواحهم يبذلونها رخيصة فى سبيل دعوته ؟ •
أطمعنا فى مال وهو فقير لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً •
ومتى كان للمال هذا السلطان القاهر على العقول والافهام ؟ •

كلا ، لا بهذا ولا بذلك ، وانما بهذا الدين الحنيف الذى
أستحوذ على العقول وأخذ بمجامع القلوب ، وبهذا الكتاب
الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى حين
سمعه ملا الحبشة من القسيس والرهبان خشعت قلوبهم وفاضت
أعينهم وأسلموا لله رب العالمين ، فنزل فيهم قوله تعالى : « ولتجدن
أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم
قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون واذا سمعوا ما أنزل الى
الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون
ربنا آتنا فاكثبنا مع الشاهدين »

ولقد ظل المسلمون على هذه الفتنة الطاغية فترة من الزمن ،
حتى اذا استفحل الخطب وعظم البلاء ، شرع الله لهم القتال دفاعا
عن النفس وذبا عن الدين ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون
بأنهم ظلموا وأن الله على نضرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم
بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة
ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » •

كان موقف الاسلام اذن موقفا سلميا في حروبه الاولى ،
لا يقصد به غير الدفاع عن أهله ، ورد عدوان المعتدين . فلما
استقرت قواعده ، و انتهت اليه الخلافة في الأرض ، كان عليه
أن يقف موقفا ايجابيا لحماية المؤمنين والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر . وهذا ما تشير اليه الآية الكريمة « ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى
عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » .

وهذا يدل على أن الحرب في الاسلام وسيلة لدرء المفسد
واقرار السلام ، لا ارضاء لشهوة الفتح والاستعباد واذا كان
الاسلام قد حث على الاستعداد الحربي بقوله : « وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم » فانما يرمى بذلك لاطفاء جذوة الحرب في نفوس
الأعداء ، وهو ما يعرف في هذا العصر بالتسلح السلمي .

وهذه مبادئه الحربية شواهد ناطقة بعدله ورحمته واحسانه
انظر اليه يأمر بالسلم اذا جنح اليها العدو ، ولو كان جنوحه
خداعا ومخاتلة : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على
الله ، انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فن حسبك
الله ، هو الذي أيديك بنصره وبالمؤمنين » .

وما تم في معاهدة الحديبية ، يدل على مبلغ حرص الرسول
— صلى الله عليه وسلم — على السلم وكرهية الحرب ، فقد رضى أن
توضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين ، في الوقت
الذي كان المسلمون يتحرقون على القتال ، وينتظرون منه كلمة
واحدة ، يدفعون بعدها كالسيل الجارف صوب مكة ، حيث
ينتصفون لأنفسهم وللإسلام من أولئك الذين أخرجوهم من
ديارهم بغير حق ، فكان الرسول حائلا بينهم وبين ما يشتهون ،
حتى كادت تحدث بينهم فتنة عمياء لولا أن الله سلم .

وكان الرسول يوصي أتباعه دائما في الحروب بقوله :
(اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغاوا
ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ، ولا منعزل بصومعته ،
ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء) .

هذه مبادئ الإسلام في الحرب ، وهي أرحم بالإنسانية
وأشرف غاية من المبادئ السلمية — ولا أقول الحرية — التي
تطبقها الدول القوية على الأمم الضعيفة باسم المدنية في هذا
العصر .

واليك هذا الموقف الرائع النبيل ، حين فتح الرسول مكة ،
ومكنه الله من رقاب قريش ، وقد وقف على باب الكعبة والناس
من حوله ينتظرون كلمة الفصل : فاما موت واما حياة . فقال
لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ . قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ

كريم • قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء • فكان ذلك سببا في اسلام
قرش بأجمعها ، وحقن دمائهم ودماء المسلمين •

فالقول اذن بان الاسلام انتشر بالسيف فرية باطلة ، وانما
انتشر الاسلام بالحجة والبرهان ، وبسماحة مبادئه وامتانة أصوله
ولا عجب فهو الذي يقول : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد
من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة
الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » •

محمد كامل حته

درس فى السياسة من آيات القرآن

يقول بعضهم ان السياسة خداع واحتيال ، وانها اتبخذ السبيل الى الكسب من أى طريق كان ، والظفر بتغليب الرأى من حيثما اتفق ، وقالوا انها أكثر من ذلك امعانا فى الكذب الصراح ، وقالوا فيها أقوالا كثيرة وخطيرة لا حاجة الى استعراضها ويكفى أن نذكر قول الشاعر المصرى حافظ ابراهيم يصف السياسة مخاطبا أحد الزعماء وهو فى طريق المفاوضات :

ان مثلوا فدع الخيال فانه
عند الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عرف السياسة فرسخ
واليوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم
معنى يقال بأنه معقول

الى آخر الأقوال الواردة فى هذا الموضوع . والواقع المشاهد انه كم من عقود مبرمة تقضت بين السياسيين ، وكم من اتفاقات معمول بها فى عرفهم واذا بها بين عشية وضحاها « قصاصة ورق » كما تسميها لغة القوة أو لغة السياسة .

الى هؤلاء نسوق الحديث ، وقول ليتهم فقهوا من القرآن
الكريم الآية العظيمة المحكمة البينة التي نذكرها فيما يلي :

« وأوفوا بعهدي الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد
توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون .
ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون
ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة هي اربى من امة » .

وظاهر الآية صريح النص فى أمره تعالى باوفاء بالمعهود
والمواثيق والمحافظة على الايمان المؤكدة ، وتبغيض الغدر
والنكث ، وقد وردت احاديث لا تحصى فى هذا المعنى ، ثم
ضرب الله مثلا لنقض المعهود والمواثيق بالتى نقضت غزلها من بعد
قوة أنكاثا ، ثم اتخاذا الايمان وسيلة للخداع والكذب والغش
— تتخذون ايمانكم دخلا بينكم — ان تكون امة اربى من
امة ، وهذا هو المعنى السياسى الذى تقصد الاشارة اليه ، وهو
ما يقع بين الأمم فى العصور الأخيرة من ضروب الخديعة حين
تكون امة اربى — أكثر — من امة .

وخلاصة ما نريد أن نشير اليه فى هذا الباب ، هو هذا
الدرس الاخلاقى السياسى العظيم الذى ضربه الله لعباده لأنه
يشتمل على صورة للمثل النبيل فى السياسة الصادقة التى توفر
على الأمم سعادتها وتضمن لها هبائها ، والا فما هى قيمة

العهود والمواثيق اذا كانت لا تساوى ما خطت به من مداد
ونقشت عليه من ورق ، وما هو الحاجز الذى يحتجز الأطماع بين
القوى والضعيف ، اذا كانت الايمان دخلا بين الناس أن تكون
أمة أربى من أمة .

وليست بنا حاجة الى استعراض ما تعانيه الأمم الحاضرة فى
كل أصقاع الأرض من ضروب العسف ونقض العهود ونكث
الاتفاقات مما هو شائع معروف ، وما تأدت اليه هذه الحالات من
مخاصمات ومشاحنات ، كاد يمتشق فيها الحسام ويشور فيها
الرصاص .

فهلا تدبر الناس فى كلام ربهم وابتغوا بما فيه من عظات
وعبر وما رسمه لهم فى حياتهم الدنيوية من سعادة وهناء .

الباب السابع في الشؤون الاقتصادية

- ١ — النهى عن التعامل بالربا
- ٢ — حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات •
- ٣ — المشاكل القضائية بين المتقاضين

النهى عن التعامل بالربا المضاعف

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا
الله لعلكم تفلحون » •

وقد جاء فى تفسير هذه الآية ما يأتى :

« يقول الله ناهيا عباده المؤمنين ، عن تعاطى الربا وأكله
أضعافا مضاعفة ، كما كانوا فى الجاهلية يقولون اذا حل أجل
الدين اما أن تقضى واما أن تربي ، فان قضاءه والا زاده فى المدة
وزاده الآخر فى القدر ، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل
حتى يصير كثيرا مضاعفا ، وأمر الله عباده بالتقوى لعلهم يفلحون
فى الأولى والأخرى » •

قلنا : هذا الذى عابه الله على المرابين من جاهلية العرب ،
فى كونهم يفعلون الربا المضاعف ، ثم نهاهم عنه وحرمه عليهم ،
هو بعينه الذى يفعله كثير من كبراء الأمم فى العالم اليوم ، فان
كثيرا من المعاملات المادية من تجارية ومالية وغيره لا تقوم الا على
هذا الربا المضاعف •

والواقع أن مشكلة التعامل بالربا بين الأمم والأفراد ، وعلى الأخص الربا المضاعف ، هي من المشاكل الرئيسية بالنسبة للمجتمع الانساني حيث كان . وذلك برغم اصطلاح القوانين الوضعية على تنظيم الربا وابلحته في أغلب أمم الأرض ، والأمثلة على ذلك من الكثرة بحيث لا تحصى ، ومن الأدلة على فساد فكرة الربا وكونها من السبل المؤدية بكثير من المتعاملين بها الى الخراب العاجل أى الى العقاب الدنيوى ، ان كل الأمم التى أبلحت الربا حددت التعامل به فى دائرة ضيقة منظمة وما وضعت ذلك التحديد الا لتدراً عن أفرادها بعض الاضرار الجسيمة التى تنتج عنه ، ولكنها برغم ذلك لم تستطع أن تدفع الأذى الكامل الذى يصيق بالناس من التعامل به ، وكثيراً ما تشغل المحاكم وينشغل القضاة بالنظر فى مشاكل المتعاملين بالربا وعلى الأخص الربا الفاحش الذى تحظره كل الأمم التى أبلحت قوانينها الوضعية التعامل بالربا فى الحدود الضيقة التى أشرنا إليها .

وفى الواقع أن الربا يجب أن يحرم وأن يمنع قطعاً طبقاً لما أمر به القرآن الكريم ، والأمة التى تفعل ذلك ، انما تسدى يد الاحسان الى مجتمعها بما تدراً عنه من الأذى الذى لا يقف ضرره عند حد بين الأفراد والجساعات ، لأن كثيراً من النفوس الانسانية لا يقف بها الجشع عند حد معين خصوصاً تلك النفوس التى غلب عليها الطمع والشح .

فصاحب المال ، يستغل ضعف المحتاج أسوأ استغلال ،
ويتعمد أن لا يقرضه الا بذلك الربا الباهظ . وشره النفس كما
قلنا لا يقف عند حد ، فيترقب على ذلك أن يزداد الدائن جسعا
فيزيد الربا حيث ينصاع المدين بتأثير الضعف النفسى ، حتى اذا
ما حان وقت السداد كانت هناك ترة مؤكدة فى النفس بين
الفریقین ، فهذا يريد ان يشبع نهمه بتحصيل ما يدعيه وذلك يشعر
اذ ذاك فقط بغبنه وخسران صفقته بأخذه ذلك القليل بما صار
اليه من الكثرة فيشعر فى قرارة نفسه بالحققد والضعينة على
دائنه الاثيم .

وليس أحسن فى هذه الحالة من المعاملة البريئة التى يقصد
بها مجرد وجه الله ، فمن كان ذا مقدرة وميسرة وطلب اليه
القرض البرىء الى أجل وميسرة فله ذاك ، ومن كان لا يستطيع
فما عليه من المندرة بالتى هى أحسن .

أما ما عدا ذلك فسيبل شائك يؤدى الى الخسران والى
ضياع الحقوق واشعال العداوة والبغضاء بين النفوس والقلوب ،
فيما لا طائل تحته ولا غنية وراءه ، والله وراء القصد .

ولقد اكتفينا بهذه الآية من القرآن فى حق الربا حيث وردت
آيات كثيرة لا تعد فى هذا الموضوع ، كلها آيات بنات .

حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات

سنذكر في هذا الباب ، أطول آية في القرآن نزلت في حفظ الحقوق بين الأفراد والجماعات . وقد رسمت تلك الآية الحكيمة ، الطريق السوى الذى يجب أن يتبعه الجميع فى معاملاتهم ، لينتفعوا من وراء ذلك بجملة أشياء ، وليدفعوا عن أنفسهم عناء الشر والتقاضى فيما لا طائل تحته . أجل لينتفعوا بحفظ حقوقهم فى معاملاتهم التى لا بد منها ، وليدفعوا عن أنفسهم شر التقاضى وما يفضى اليه من خصومة وضغن ، وثرة ودخل .

ولقد عنى القرآن الكريم فى هذه الآية التى قلنا أنها أطول آية فيه ، بأدق مثل كريم ، لأدق مشكلة من مشاكل البشر ، اذ هى ضمنت حقوقهم المالية ، والمسائل المالية فى القديم والحديث، هى مشكلة المشاكل فى حياة الناس سواء كانوا أفراداً أو جماعات فأما الأفراد فكثيراً ما تنشأ بينهم العداوات وتشيع البغضاء بل ولا نذهب مذهب الغلو اذا قلنا ، وترتكب الجنايات والجرائم ، من أجل مسألة مالية أو معاملة تجارية ، والجماعات كثيراً تتوتر

منهم النفوس وقد تشب الحروب وتقطع أواصر الصلوات ، من أجل مسائل مالية أو مشكلة من مشاكل التعامل . لهذا فقد عنيت آية القرآن الكريم بتفصيل هذه المسألة تفصيلا دقيقا كما تصف الداء وتصف معه الدواء ، بما لم يترك عفرا لمهمل يضيع من حقه ثم ينشده وييكى عليه ، أو يضيع حقه ثم يثير من أجله حربا عوانا لا أول لها ولا آخر .

يقول القرآن الكريم فى الآية المذكورة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان فعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » .

أجل • لو قرأ الناس هذه الآية الكريمة من القرآن وتبها
اليها وفطنوا الى ما فيها من حكمة سامية وعملوا بها • انهم لو
فعلوا ذلك لأقفلت دور التقاضى أبوابها بين عشية وضحاها
ولاستراح الناس واستراح القاضى • والا فماذا يفعل القضاء فى
الأمم الحاضرة أكثر من انشغاله بدعاوى الحقوق المدنية حيث
أهمل الناس أمور دينهم وتعاليمه واتبعوا شهوات الدنيا وما تزينه
من الباطل والبهتان والزور •

لقد تضمنت هذه الآية الكريمة عشر مسائل ، كل مسألة منها
مشكلة من مشاكل المجتمع الانسانى فى كل مكان وكل زمان •
واننا لنذكر بالايجاز تفصيل تلك المسائل التى أرشدت اليها الآية
وأوجبتها أو نهت عنها ، صونا للمصلحة العامة بين الأفراد
والجماعات •

أولا — تقول الآية « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين
الى أجل مسمى فاكتبوه » فهذا أمر للناس بكتابة ما يتقارضون
من الحقوق حفظا لها « وأدنى الا ترتابوا » كما جاء فى آخر
الآية وصونا للنفوس من نزعات الشيطان وما يوسوس به للنفس
الأمارة بالسوء من تزوين الباطل بجحود الحق أو المماطلة فيه •

ثانيا — « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » وهذا أمر لمن
يتولى الكتابة بين ذوى الحقوق أن يكون مقسطا فى كتابته فقد
يكون الطرفان جاهلين أو أميين أو أحدهما كذلك والآخر متعلم،

والأمر في هذه الحالة متعلق بذمة الكاتب وضميره فلا يخون أحدهما الآخر ، ولا يكون مع فريق دون فريق *
ثالثا -- « ولا يآب كاتب أن يكتب كما علمه الله » إذ أن كثيرا من الناس الذين يحسنون الكتابة ، حين تسألهم أن يكتبوا لك شيئا وأنت أمي جاهل ، يعتذرون بالجهل وعدم المعرفة وهم كاذبون ، وذلك شيء مشاهد ملموس ، فهذا الأمر لهم بأن لا يكتبوا نعمة الله عليهم وأن لا يتأبوا الكتابة لمن لا يعرفها منتحلين ذلك الادعاء الكاذب *
رابعا -- « وليمل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض

منه شيئا » وهذا أمر للمدين أن يملل الحق الذي عليه ويقرره على صحته فلا يبغض صاحبه شيئا وإن يتقى الله ربه في ذلك *
خامسا -- « فإن كان الذي عليه الحق منفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل » وهذا أمر على ولي المدين أن يقرر الحق الذي هو في ذمة صاحب الولاية عليه إذا كان ذاك مجنونا أو معتوها أو ضعيفا ، وإن يقرره بالعدل من غير بغض *
سادسا -- « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا

رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحدهما فتذكر أحدهما الأخرى » وهذا أمر صريح بضرورة الاستشهاد في مثل تلك الأحوال ، ولا تنكر قيمة الشهادة وثقلها وقد أفسح الله لعباده فجعل الشهادة برجلين فإذا لم يتيسر فبرجل وامرأتين إذ أن المرأتين تقومان مقام الرجل في الدين الإسلامي في جالتي

الامتشهاد والتوريث والحكمة في ذلك ظاهرة أجل من أن تخفى
وقد ذكرتها الآية في قوله تعالى وذلك أن تفضل — تسمى —
احدهما فتذكر احدهما الأخرى وذلك لما هو معروف عن طبيعة
المرأة وضعفها عن الرجل ، على أن النقطة الجديرة بالملاحظة هنا،
هي أن الذي يقرر هذا الكلام في حق المرأة ، هو الخالق العظيم
الذي خلق الجنسين من ذكر واثى ، والذي هو أعلم بسرماخلق
وبطبيعة خلقه فلا داعى لفضول المتحذلقين الذين يقولون بمساواة
المرأة بالرجل في جميع المهن والأعمال .

سابعاً — « ولا يآب الشهداء اذا ما دعوا » وهذا أمر صريح
لمن يتولون الشهادة بين طرفين دائن ومدين ، أن لا يتقاعسوا عن
تلبية أداء واجب الشهادة اذا ما دعوا الى أدائها اقرارا للحق
وصونا لحقوق الناس وهو أمر له قيمته وخطره في حض من
يتولون الشهادة على عدم الاحجام والمبادرة الى تقرير ما يعلمون،
وقد جاء في حق الشهادة آية أخرى في غير هذا المكان من
القرآن نعرض لها في محلها ان شاء الله .

ثامناً — « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله
ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا الا أن
تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا
تكتبوها » وهذا أمر كريم فيه نهاية الارشاد والسداد ، اذ يقول
سبحانه وتعالى لا تسأموا ولا تستهينوا أن تكتبوا أى شيء قل
أو كثر دفعا للريبة فيما بينكم ودفعا لما يترتب على الريبة من

مخاضات وشحناء وبنضاء ومقاضاة الا اذا كانت المعاملات مقبوضة ليس فيها نسيء ، فهي في هذه الحالة لا يضر فيها عدم الكتابة وذلك هو اعدل لكم واصلح ، وهذه الفقرة من الآية جمعت اسمى معانى الاخلاص وحب الله لعباده حين يرشدكم الى تجنب أبسط ما ينتج منه الضرر لهم •

تاسعا - « وأشهدوا اذا تبايعتم » وهذا أمر من الله لعباده بأن يستشهدوا على ما يتبايعون منعا لما قد يقع بين طرفى البائع والمشتري فى مستقبل أمرهم من ظنة أو نكران أو جحود تؤدي بهما الى المخاصمة أو الشر •

عاشرا - « ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » أى اذا كان الكاتب أو الشاهد على حاجة أو معذرة وهما فى هذه الحالة من خدام الانسانية والحق ، فلا تجب مضارتهما أو اكراههما على ما لا يستطيعان ، وقد قضت حكمة الله أن يدفع عن الكاتب والشهيد هذه المضارة فى مقابلة ما أمرهما به فى مقدمة هذه الآية من الامتثال فى قوله « ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله » وفى آية أخرى تحض على عدم كتمان الشهادة •

وفىما يلى نذكر بعض الأحاديث التى تؤيد ما جاء فى هذه الآية •

قضى الحديث من رواية سفيان بن عيينة عن ابن عباس رضى
الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أسلف
فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم وأجل معلوم) وفى حديث
آخر (من كنتم علما يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) •

وقد وردت أحاديث كثيرة فى مثل هذه المعانى كما وردت
أقوال قيمة لطائفة من أئمة السلف الصالح ، وحسبنا الإشارة
إليها إذ شرحنا معنى الآية القرآنية التى هى ليست فى حاجة إلى
وضوح وليس فيها من إبهام •

ونرى قبل أن نختم هذا الباب أن نذكر آية أخرى من
القرآن الكريم هى تنمة لهذا الكلام وللآية التى سبقتها وهى
قوله تعالى :

« وان كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة ،
فان أمن بضمكم بعضا فليؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه ،
ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون
عليم » .

وهذه الآية كما قلنا ، هى تنمة لما سبق الكلام عليه ، فاذا
كان المتدائنان على سفر ولم يجدا كتابا يكتب لهما أو وجدا
الكتاب وتعذرت أسباب الكتابة أو ما إلى ذلك من الأحوال ،
فرهان مقبوضة • فاذا توقرت الثقة بالأمانة بين الطرفين لأن الله
سيجانه وتعالى لا يريد الحرج على عباده فيكفى تلك الثقة أن
تقوم مقام الكتابة والشهادة وانما على المؤمن أن يؤدى أمانته

وهذا أمر عليه من الله ومع هذا فالله سبحانه وتعالى الذى هو أعلم بصعير العباد وبدخيلة نفوسهم وخائنات صدورهم قدم الكلام فى الآية الكبرى فقال : ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا . فهو خير عباده فى تصرفهم بعد أن قدم لهم أخلص معانى النصح والارشاد وأسمائها .

أما قوله ولا تكتموا الشهادة أى لا تخفوها ولا تجحدوها ، فقد قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك ، أى أن شهادة الزور تعادل كتمان الشهادة ، وفى هذا ابلاغ ومن يكتمها فانه آثم قلبه أى فاجر مذنب ، وهذا كقوله تعالى « ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين » وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولو بها فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » وهكذا قال هنا « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » .

فمن هذه الآيات المحكمة التى تحض على اداء الشهادة وعدم كتمانها ودفع التهييب فى ادائها مهما كان موضوعها وموضوع الذين يدخلون تحت طائلتها ، ندرك مقدار السعادة الآلهية التى رسمها الله لعباده بتقرير كل ما يتعلق بأدق شئون معاملاتهم فى حياتهم الدنيوية فيما بينهم وبين بعضهم سبواء كانوا أفرادا أو جماعات ، والله بصير بعباده .

المشاكل القضائية في المحاكم

وبين المتقاضين

ومن الظواهر الاجتماعية في كل بلد بل في كل بقعة من بقاع العالم ، وفي كل زمان من الأزمنة ، وقوع المشاكل بين المتقاضين بحيث تنص المحاكم ودور الحكومات ، بهذا النوع من الخصومات ونعني به التقاضي في الخصومات المدنية والحقوق ، والمسألة في هذه الحالة لا تتجاوز أحد أمرين بحال من الأحوال : وهي إما أن يكون هذا الخصم محقا في دعواه والآخر مبطلا ، وأما أن يكون العكس في حين أن كل واحد من الطرفين المتقاضيين يزعم لنفسه الحق ، ويدعى أنه في جانبه ، وقديما قال الشاعر :

لو أنصف الناس استراح القاضي

وبات كل عن أخيه راض

فلو أنصف الخصمان المتقاضيان ، لكانت منهم الحكومة العادلة والقول الفصل ، ولاستراح القاضي كما قال الشاعر .

والمشاهد الملموس أن الخصومة بين المتقاضيين لا تقف عند حدهما ولا تقتصر عليهما ، خصوصا في البلدان الراقية حيث ،

يعمد كل فريق الى اناة شخص يدافع عنه وهو المعروف بالحامي
فى الاصطلاح العام . ومما لا شك فىه أن كل محام فى طرفى
الخصومة انما يمثل رأى موكله ، ولا شك أن أحد الطرفين
التقاضيين على حق والآخر على باطل ، فيترتب على ذلك أن
يكون أحد المدافعين يدافع عن حق والآخر يدافع عن باطل وتلك
نتيجة معقولة لهذا المنطق المرتب ، لا نتيجة له سواها فما هو
المعنى المستفاد من حالة كهذه .

لا شك أن هذه مشكلة اجتماعية كبرى لها خطورتها فى حياة
الأمم وأخلاقها ، ويمكن للقارىء أن يذهب مع الخيال قليلا ،
فيتصور لو أن المجتمع الانسانى خلا من مشكلة كهذه تعتبر من
أهمّات المشاكل التى تقض مضاجع الملايين من بنى الانسان ،
كلما أشرقت شمس أو غرب نهار .

والقرآن الكريم عافاك الله ، واجه هذه المعضلة مواجهة
صريحة ، وحلها حلا صريحا جبدا لوفقه له المسلمون ، وتبته اليه
المؤمنون ، لتلمسوا معنى من معانى السعادة الحقيقية ولا رتاحوا
الراحة الكبرى ولكن هيهات .

جاء فى القرآن الكريم ، فى هذا الموضوع ما يأتى :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام
لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأتم تعلمون » .

والآية الشريفة ، واضحة التفسير ، بينة المرمى ، وقد قال
المفسرون في شرحها أقوالا كثيرة ، نجتزئ ب بعضها فيما يلي :

عن ابن عباس : هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه
فيه بينة فيجحد المال ويخاصم الى الحكام وهو يعرف أن الحق
عليه وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، وقال جمهرة من السلف
الصالح : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم ، واتماما للفائدة نذكر
أن قضاء القاضى فى هذه الحالة لا يعتبر حجة تسينح للظالم ابتلاع
حق المظلوم ، وإنما هو مجرد حكم دنيوى أداء اليه اجتهاده فيما
مثل أمامه من أدلة ان صحيحة وان زائفة ، فلا يعفيه ذلك من
عذاب الله ، وان سوغ له فى الظاهر الاستيلاء على حق غيره
والاعتداء على مال سواه .

وتأييدا لذلك نذكر أنه ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (انما أنا بشر وانما يأتينى
الخصم ، فاعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ،
فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من نار فليحملها أو
ليذرها) .

والمشاهد الملموس فى كل بيئة وكل مجتمع ، أن الناس كثيرا
ما يتخاصمون من أجل المعاملات المادية ، وتختلف الحالات عن
بعضها من ناحية وجود الاثبات والمستندات أحيانا ، والاعتداد
على الذمة والشرف أحيانا أخرى ، فتكون النتيجة المحتممة ، هي
الادلاء بالأموال الى الحكام ، والحاكم يقضى فى حكومته بما

يراه أمامه من أدلة الاثبات والنفي ، ولا يد أن يقف أحد المتقاضين
في موقف الصادق والآخر في موقف الكاذب ، خصوصا مايجره
المتقاضيان في سبيل تأييد دعواهما أحيانا من شهادة الزور وما
اليها حيث تتضاعف الآثام وترتكب الجرائم •

ذلك هو سر قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
وتدلوها بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بلائهم
وانتم تعلمون » •

وليتصور القارىء مايقع أحيانا من الجرائم الدموية والاصابات
في الأنفس من جراء حالات كهذه مشاهدة ملموسة ، تتناقل
الصحف أنباءها وتتجاوب صداها في كل بقاع العالم •

ليتأمل القارىء ، وليتدبر •

البَابُ الثَّامِنُ فصول متفرقة في الشؤون العامّة

- ١ — الشعر والشعراء في رأى القرآن •
- ٢ — مجموعة من المواعظ والأحكام •

حكم القرآن في الشعر والشعراء

كثرت أقوال الناس في الشعر والشعراء ، وفي النص الوارد في القرآن بشأنهم ، واختلفت هذه الأقوال إما اختلاف ، فأحل الشعر بعضهم ، وحرمه آخرون ، ويدلون لك على هذا بقوله تعالى في القرآن « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ويقفون بك عند هذا الحد من الآية ، وذلك على غرار ذلك الذي يقول لك : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » ثم يقف فيعكس المعنى المطلوب .

وقد حملتني هذه النظرة على تتبع ما جاء في القرآن الكريم عن الشعر ، وعما ورد فيه من الأحاديث وأقوال المفسرين ، فخلصت من ذلك الى النتيجة الآتية :

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

« والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واديهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا واتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

وهذه الآية صريحة المعنى واضحة الغرض ، ولكن اليك
أقوال المفسرين الثقات في موضعها •

جاء في تفسير الشيخ ابن كثير ما نصه :
كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فقام من الناس ولهذا
فقام من الناس ، فانزل الله تعالى الآية •

وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة عن ابي سعيد ، قال بينما نحن
نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج اذ عرض شاعر
ينشد ، فقال صلى الله عليه وسلم (خذوا الشيطان ، لأن يمتلىء
جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن يمتلىء شعرا) •

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في كل واد يهيمون ،
أى فى كل لغو يخوضون ، وقال الضحاك فى كل فن من فنون
الكلام وكذا قال مجاهد وغيره • فان الشعراء يتبجحون بأقوال
وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا
اختلف العلماء رحمهم الله فيما اذا اعترف الشاعر بما يوجب حدا
هل يقام عليه الحد بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون
على قولين •

وقد ذكر محمد بن اسحاق ومحمد بن سعد فى الطبقات
والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على
ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر ، فقال :

الا هل أتى الحسناء ان خليلها
 بميسان يسقى في زجاج وحتم
 اذا شئت غنتي دهاقين قرربة
 ورقاصة تحدو على كل مبسم
 فان كنت ندماني فبالاكبر اسقني
 ولا تسقني بالاصغر المتلثم
 لعل أمير المؤمنين يسوءه
 تنادمننا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
 قال : أي والله ليسوءني ذلك ، من لقيه فليخيره أنى قد عزلته ،
 وكتب اليه خطابا بمنزله ، فلما قدم الى عمر بكته بهذا الشعر فقال
 والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر الا شئ عطفح
 على لساني ، فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبدا
 وقد قلت ما قلت . والمراد بهذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم
 الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا شاعر ، لأن حاله مناف
 لحالهم من وجوه كثيرة كما قال تعالى « انه لقول رسول كريم ،
 وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا
 ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » .

وقال محمد بن اسحاق عن ابن أبي عبد الله مولى تميم
 الدارى قال لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) جاء حسان بن
 ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهم سيكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية
أنا شعراء ، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم « الذين آمنوا وعملوا
الصالحات » قال : أتم ، وذكروا الله كثيرا قال أتم ، واتصروا
من بعد ما ظلموا قال أتم رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من
رواية ابن اسحاق . وقد وردت أحاديث متشابهة في هذا المعنى .

وجاء في تفسير قوله تعالى « واتصروا من بعد ما ظلموا »
قال ابن عباس يردون به على الذين كانوا يهجون به المسلمين وقد
ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان
ابن ثابت (أهجهم — أو هاجهم — وجبريل معك) وقال الامام
أحمد حدثنا عبد الرازق عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن
أبيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قد أنزل
في الشعراء ما أنزل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (ان المؤمن
يجاهد بسيفه ولسانه والذي تسمى بيده لكان ماترمونهم به نضح
النبل » .

النتيجة

والنتيجة المستفادة من معنى الآية الشريفة ، ومن الأحاديث النبوية الكريسة ، ومن أقوال المفسرين ، هي أن الشعر مثله مثل غيره من الأعمال يثاب المرء على الصالح منها ، ويعاقب على السيء فيها ، وهذا هو القانون الطبيعي لكل أمر ، إذ أنه يحتمل الوجهين وجه الخير ووجه الشر ، فالشعر الذي يحتمل ناحية الخير هو الشعر المباح ، والذي يحتمل ناحية الشر هو المحظور .

وجاء في تفسير الشيخ البغوي لهذه الآية ما نصه :

قال أهل التفسير : أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم وذكر مقاتل أسماءهم مما لا داعي لسرده هنا ، ويتبعهم العاؤون يقصد الرواة الذين كانوا يجتمعون لسماع ذلك الهجو ويتناقلونه في كل مكان وورد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول :

خلوا بني الكفار عن سيئه
اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر يا ابن رواحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل) .

وروى من طريق عبد الواحد المليجي بسنده الى عدي انه سمع البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : (اهجمهم — أو هاجمهم وجبريل معك) وورد عن عائشة أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الرسول (ان الله يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله) وورد عن عائشة انها قالت (الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان من الشعر لحكمة ، وقال الشعبي كان أبو بكر رضي الله عنه يقول الشعر وكان عمر رضي الله عنه يقول الشعر ، وكان علي رضي الله عنه أشعر الثلاثة وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده فروى انه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده القصيدة التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشده ابن ربيعة القصيدة الى آخرها .

وورد عن عائشة انها قالت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال (اهجوا قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل ، فأرسل الى
ابن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض فأرسل الى كعب بن
مالك ثم أرسل الى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان قد
آن لكم أن ترسلوا الى هذا الأسد الضارب بذنبيه ، ثم أدلح
لسانه فجعل يحركه فقال (والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني
فرى الاديم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعجل فان أبا
بكر أعلم قريش بأنسابها وان لى فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبي
فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله قد خلص لى نسبك والذي
بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، وفان :

هجوت محمدا فأجبت عنه

وعند الله فى ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا تقيا

رسول الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم

ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

وفي تفسير هذا التحديد ، نستخرج الطريق السوي الذي
رسمه القرآن الكريم للصورة التي يجب أن يكون عليها الشاعر
الاسلامي وللمواضيع التي يجوز له أن يطرقها ، ومفهوم أن
المقصود من ذلك العمل على ما فيه مكارم الأخلاق وما يدعوا الى
العمل الصالح ، وينهى عن السيئات ، أما الأبواب الأخرى التي
تعود الشعراء أن يلجوا فيها ويخوضوا عباب تلك البحور السيئة
فمنهى عنه ومستقبح خصوصا ناحية المهاجة والعياذ بالله والخوض
في الاعراض واتباع أرذل الكلام وأشنعه والسباب بالباطل
والمديح الكاذب والنفاق والمراءاة والهيام في كل ذلك هو المشنوء
في نص القرآن وهو ما يتنافى مع كرامة الشعر والشعراء ، ومن
يتبع ذلك فيكون قد حقت عليه الآية الكريمة في شطرها الأول ،
كما أن من يتجنب ذلك يكون من الذين اتصفوا بالشطر الثاني
من تلك الآية .

فلنتخيل أن الشعراء اتبعوا نصيحة القرآن الشريف وعملوا
بما جاء في الآية التي نزلت فيهم فماذا نجد . نجد صورة رائعة
للأدب العربي غير الصورة الموجودة اليوم ، أجل كنا نجد الأدب
مرسوما في غايته السامية خلوا من كل ذام ومستقبح ، أما ولم
يفطن الكثير من الشعراء الى تلك الصورة التي رسمها القرآن
الكريم للغاية السامية التي يجب أن يتبعوها ، فقد حقت عليهم
كلمة الله ولا حول ولا قوة الا بالله الا من عصم ربك ، من الذين
آمنوا وعملوا الصالحات .

مجموعة من المواعظ والاحكام

إتناء الحقوق الى مستحقيها — النهى عن التبذير —
صرف المحتاجين عند المعذرة بالقول الحسن — النهى عن الشح
والاسراف —

هذه آية واحدة من الآيات الكثيرة التى حفل القرآن الكريم
بأمثالها وقد جعلت طائفة من الأحكام التى تكفل السعادة لأبناء
المجتمع العالمى لو أنهم تفقهوها وتدبروا ما جاء فيها وعملوا به .
وهذا نص تلك الآية الحكيمة الجامعة :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر
تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه
كهورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم
قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل
اليسط فتعبد ملوما محسورا » .

فأما الكلام على إتناء الحقوق الى مستحقيها من ذوى القرابة
والرحم ومن يليهم من المسكين وابن السبيل والسائل وما الى
ذلك ، فقد تقدم القول عنه فى باب آخر من أبواب هذا الكتاب

فلا داعي الى تكرار الحديث بالتفصيل فيه وحسبنا الاشارة اليه
لأن الآيات كثيرة وحفيلة بأمثال هذه المعاني النبيلة ، وتكرارها
انما هو للمناسبات التي نزلت فيها ولأنه يدل على مقدار النصح
الالهى الكريم لعباده باتباع الطسرق المؤدية الى سعادتهم فيما
بينهم وتحملهم على تجنب كل ما يعود عليهم بالمضرة والخسران
وتشتمل الآية على النهى عن التبذير ، والتبذير علة من علل
المجتمع الانسانى لأنه داء عضال فى كثير من بنى الانسان ،
يقابله داء الشح فى كثير من الناس ، وقد وردت الآيات الحكيمة
كثيرة فى هذا الصدد ، وحسبنا أن نشير الى قوله تعالى «والذين
إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» فكم من أسرة تشتت شملها ،
وكم من بيوت خلت على عروشها وكم حوادث مؤلمة زلزلت كيان
مجتمعات كثيرة سببها كلها واحد ، هو التبذير ، خصوصا اذا
كان المبذر رب أسرة يعولها فاذا طاح عنها خلف لها الشقاء
والبؤس ، وقد نهى الله عن التبذير وبغضه الى عباده أشد
التبغيض حيث قرن المبذرين بأخوة الشيطان والعياذ بالله .

ومن المسائل التي حفلت بها هذه الآية الكريمة ، مسألة صرف
المحتاج عند المعذرة بالقول الحسن ، فى قوله تعالى « واما
تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا
ميسورا » أى اذا سألك أقاربك ومن أمرناك باعطائهم وليس
عندك شئ وأعرضت عنهم لفقد النفقة فقل لهم قولا ميسورا ،
أى عدهم وعدا بسهولة ولين ، وهكذا ورد فى تفسير ابن كثير

رواية عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ،
وفي هذا من مكارم الأخلاق ما فيه لأن المشاهد أن كثيرا من
الناس ، جلهم ان لم تقل كلهم يتقاعسون عن أداء مثل هذا
الواجب الخطير ، وباليتهم حين يفعلون ذلك يصرفون الموضوع
بالحسنى بل انهم يصرفونه بالشراسة وسوء الخلق .

فانظر الى أدب القرآن الحكيم كيف الزمنا بهذا الالزام حتى
لا نجرح شعور غيرنا من المحتاجين والمعوزين فلا تقضى لهم
حاجتهم ولا نحسن اليهم بالقول الحسن . وتشتمل الآية بعد
ذلك على النهي عن الشخ والإسراف ، في قوله تعالى « ولا تجعل
يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعبد ملوما
محسورا » والنص واضح التفسير ، ولكننا ثبت فيما يلي أقوال
المفسرين فيه .

يقول الله تعالى آمرا بالاقتصاد في العيش ذاما للبخل ناهيا
عن السرف « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » أى لا تكن
بخيلا منوعا لا تعطى أحدا شيئا ، « ولا تبسطها كل البسط »
أى ولا تسرف فى الاتفاق فتعطى فوق طاقتك وتخرج أكثر من
دخلك « فتعبد ملوما محسورا » وهذا من باب اللف والنشر
فيقصد ان يخلت يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما
قال زهير :

ومن كان ذا مال فيبخل بماله
على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون
كالحسير وهو الدابة التي عجزت عن السير فتوقفت ضعفا وعجزا
فإنها تسمى الحسير مأخوذ من الكلال كما قال تعالى « فارجع
البصر هل ترى من فتور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك
البصر خاسئا وهو حسير » أى كليل •

وخلاصة معنى الآية هو النهى عن الشح الذى هو البخل
والامساك عن ايتاء الحقوق لمستحقيها من الصدقات وغيرها من
أنواع البر والمساعدات والنهى عن الاسراف الذى هو مدعاة
الفقر والعجز والافلاس •

فليتأمل هذا النص الحكيم من يشدون السعادة فى دنياهم
فى ترتيب دخلهم وخرجهم ، وترتيب القيام بما هو مفروض عليهم
نحو اخوانهم من ذوى قرباهم فى النسب والاسلام ، وبما هو
مفروض عليهم نحو أنفسهم ، ونختم هذا الباب بالحديث النبوى
الوارد فى الصحيحين الذى يقول : ما من يوم يصبح فيه العباد
الا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما اللهم اعط منفقنا
خلفا : ويقول الآخر اللهم أعط مسكنا خلفا •

الفهرس

صفحة	الموضوع
٧	تمهيد
الباب الأول في الشئون الأخلاقية ١٧ - ٣٦	
١٩	النهي عن الظن السوء والفتية
٢٢	الأمر بالحسنى
٢٤	تحريم السخرية والامتهزاء
٢٧	النهي عن الغضب وما يجسر إليه
٣٠	مكارم الأخلاق
٣٣	النهي عن شح النفس
الباب الثاني في الشئون الاجتماعية ٢٧ - ٦٠	
٣٩	الخمر مبعث الجرائم
٤٤	اثر الشريعة في قطع دابرة الجرائم
٤٧	السحر في معتقدات العامة
٥١	الأمر بالمعروف والنهي عن التفرق والاختلاف
٥٤	مشكلة اجتماعية خطيرة
٥٦	الاستقامة من أسباب السعادة

تابع الفهرس

صفحة

الموضوع

الباب الثالث في الشؤون الصحية ٦٠ - ٧٨

٦٣	نظام الحجر الصحي في القرآن
٦٧	اعتزال النساء في الحيض
٧٠	النظافة في الاسلام
٧٤	نظام فطام الطفل

الباب الرابع في الآداب العامة ٧٩ - ٨٨

٨١	آداب الاستئذان قبل دخول البيوت
٨٢	آداب الاستئذان في الاسرة
٨٦	آداب المجالس العامة

الباب الخامس في الشؤون الخيرية والانسانية ٨٩ - ١٠٠

٩١	انواع البر وشعب الاحسان
٩٥	بر الوالدين وطاعتهما
٩٨	الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير

تابع الفهرس

الموضوع	صفحة
الباب السادس في فنون الحرب والقتال ١٠١ - ١٢٤	
منع الاعتداء في القتال	١٠٣
مبادئ الاسلام في السلم والحرب	١٠٧
درس في السياسة من القرآن	١٢١
الباب السابع في الشئون الاقتصادية ١٢٥ - ١٤٢	
النهى عن التعامل بالربا	١٢٧
حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات	١٣٠
المشاكل القضائية بين المتقاضين	١٢٨
الباب الثامن فصول متفرقة في الشئون العامة ١٤٣ - ١٥٦	
الشعر والشعراء في رأى القرآن	١٤٥
مجموعة من المواظف والاحكام	١٥٢

To: www.al-mostafa.com